



سلسلة بيت الحكمة الثقافية

النهضة الحسينية

بين مقتضيات الواقع الاجتماعي والقيام بالواجب الشرعي

من محاضرات العلامة الشيخ
الدكتور عبد الهادي الفضلي



منشورات بيت الحكمة الثقافي



النهضة الحسينية

النهضة الحسينية

بين مقتضيات الواقع الاجتماعي والقيام بالواجب الشرعي

من محاضرات العلامة الشيخ
الدكتور عبد الهادي الفضلي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

أخرجت هذه الطبعة بإشراف
لجنة مؤلفات العلامة الفضلي





تقديم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كان - ولا يزال - موسم عاشوراء من المواسم الثقافية المهمة في مجتمعات الموالين لأهل البيت عليه السلام، حيث يحيون فيه سنويًا ذكرى حادثة كربلاء المؤلمة، وذلك من خلال العديد من البرامج الثقافية والوعظية والروحية المتعددة. ويعدّ الموسم الثقافي الاجتماعي الأبرز بجانب موسم شهر رمضان المبارك، وذلك من حيث تنوع البرامج وحضورها الجماهيري الواسع.

وفي عاشوراء يتناول خطباء المنبر الحسيني واقعة كربلاء في جوانبها: التاريخية، والاجتماعية، والدينية. وإلى جانب الحديث عن كربلاء، يتناول الخطيب العديد من الموضوعات الدينية الأخرى، كالتفسير والفقه والعقيدة والحديث والسيرة والأخلاق وغيرها. وهو ما يجعل عاشوراء من أغنى المواسم الثقافية في هذه المجتمعات.

□ موسم عاشوراء ودعوات التجديد

يختلف خطباء المنبر الحسيني في طريقة تناولهم لواقعة كربلاء، ففي حين يكتفي البعض بالإطالة التاريخية المألوفة على الحادثة وتناول ما يتعلّق بها من موضوعات أخلاقية ووعظية مكرورة، يكون منهج البعض الآخر هو محاولة التعمّق واستجلاء الدروس والعبر من تلكم الحادثة المهمّة والمفصلية في تاريخ الأمة الإسلامية.

وقد كانت هناك العديد من دعوات التجديد في المستوى الخطابي للمنبر الحسيني والخروج عن التقليدية التي لا تتناسب ومتطلّبات العصر الحديث، وبخاصّة في تناول قضية مهمّة مثل النهضة الحسينية. وكان من تلكم التجارب إنشاء معهد للخطابة الحسينية، كانت بواده الأولى في مدينة النجف الأشرف وبدعم من المرجعية الدينية المتمثلة حينها في مرجعية السيد محسن الحكيم (ت ١٣٩٠هـ). وهي التجربة التي لم يكتب لها النجاح لظروف موضوعية واجتماعية عديدة، ليس لمثل هذا التقديم أن يعالجها أو يتطرّق إليها.

وإلى جانب تطوير الخطاب المنبري الحسيني، ظهرت دعوات مماثلة إلى تطوير برامج الموسم الثقافي العاشورائي، بحيث لا تقتصر تلكم البرامج على الخطبة الوعظية والتعزية والمرثية والإنشاد العاشورائي. فينضمّ إلى ذلك المحاضرات الثقافية الموجهة بالخصوص إلى الطبقة الشابة والمثقفة. فظهرت برامج ثقافية حديثة استجابة لتلكم الدعوات. وكان منها (برنامج النهضة الحسينية) الذي أقيم في حسينية الزهراء

عليه السلام (حسينية آل شهاب) بمدينة سيهات، شرق السعودية، الذي كان أسبوعاً ثقافياً متنوعاً يضمّ إلى جانب الخطبة الوعظية والنعي الحسيني: المحاضرة الثقافية التفاعلية بين المحاضر والجمهور. وكان من محاضري البرنامج ساحة العلامة الشيخ الدكتور عبد الهادي الفضلي - حفظه الله. إذ شارك بمحاضرتين، افتتاحية بعنوان: (النهضة الحسينية.. أمر معروف ونهْيٌ عن منكر) في الليلة الأولى من المحرم سنة ١٤١٧هـ (١٨ / ٥ / ١٩٩٦م)، وأخرى في وسط البرنامج بعنوان: (كيف أحيّا الإمام الحسين عليه السلام الإسلام من جديد؟) في الليلة الثالثة (٢٠ / ٥ / ١٩٩٦م).

وقد أثرنا - في لجنة مؤلفات العلامة الفضلي - تحريرهما بما يتلاءم ونمط الكتابة، إذ اقتضى ذلك دمج محتوى المحاضرتين في فصول خمسة، حيث لم نستطع فصل المحتوى في فصلين متغايرين، وذلك لتداخل ما طرح فيهما، وبخاصّة فيما يرتبط بالمحاضرة الثانية التي اضطرّ فيها ساحة الشيخ إلى إعادة بعض ما كان قد أشار إليه في المحاضرة الأولى. ولعل ذلك يرجع إلى اختلاف جمهور المحاضرتين. ويضاف في جهد التحرير وضع العناوين الرئيسة والفرعية وإضافة الهوامش، حيث رجعنا إلى المصادر الرئيسة قدر المستطاع وتضمنين ما ذكره الشيخ أثناء المحاضرة بنصّ عبارة تلکم المصادر. ولم يكن ذلك بالأمر اليسور في جميع مواضع الاستشهاد، وذلك لمحدودية ما بين أيدينا من مصادر.

وإننا لنأمل - في الختام - أن تعمّ بهذه الدراسة الفائدة، وأن يمنّ الله

على المؤلف القدير بدوام الصحة والعافية، وأن يوفقنا لإتمام مشروع نشر جميع مؤلفاته وتراثه الفكري خدمةً لهذا الدين الحنيف الذي وطّن ساحة العلامة عمره في خدمته وبَدَلَ جَلَّ جهده وفاءً له.

حسين منصور الشيخ

لجنة مؤلفات العلامة الفضلي

١٨ / ١٢ / ١٤٣٣ هـ

٣ / ١١ / ٢٠١٢ م

مقدّمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى وبعد:

النهضة الحسينية من الأحداث التاريخية المهمة على الصعيد الإسلامي، وذلك لما ولّدت هذه الحادثة من واقع جديد على المستويات: الفكرية والاجتماعية والدينية، عقيب وقوعها واستمرّت إلى يومنا الحاضر.

ورغبةً في المشاركة في تجلية بعض ما دار حول هذه الحادثة من ملاحظات، ارتأيت تناولها ضمن محورين رئيسين، هما: الجانب الاجتماعي، الذي أشرتُ فيه إلى ما فرضته مقتضيات التطوّرات الاجتماعية - حينها - على الإمام الحسين عليه السلام في ذهابه إلى خيار المواجهة والثورة على الواقع القائم. والجانب الشرعي، الذي أُنبتُ فيه طبيعة

النهضة الحسينية ولكونها أداءً لفريضة إلهية مهمّة، وهي فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد رتبها ضمن العناوين التالية:

- النهضة الحسينية.. أداء لفريضة إلهية.
- النهضة الحسينية وطبيعة التحرك.
- المجتمع الإسلامي وبوادر التغيير.
- أهل البيت ومرحلة المواجهة.
- التضحية سبيلاً وحيداً للتغيير.

أملاً أن تكون هذه الفصول قد وضعت لبنة جديدة في فهم أوسع وأعمق لقضية الحسينية، وبخاصّة في ملابسها الموضوعية. والله تعالى ولي التوفيق، وهو الغاية.

عبد الهادي الفضلي



الفصل الأول

النهضة الحسينية أداء لفريضة إلهية

- فريضة الأمر بالمعروف في المجتمع الإسلامي
- الفريضة الشرعية وأساليب التطبيق

لا يمكن عزل حركة النهضة الحسينية - من أجل فهمها فهمًا صحيحًا - عن واقعها الاجتماعي فيما كانت تشهده الساحة الإسلامية في ذلكم الوقت من متغيرات على الصعد السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية. وكذلك - بطبيعة الحال - عمّا رافقها من أحداث وتصريحات من كلا طرفي المواجهة. وفي هذا السياق، جاءت وقفتنا في هذه الدراسة مع الإعلان الأول لهذه الحركة، وذلك في الرسالة التي كتبها الإمام الحسين عليه السلام إلى أخيه محمد بن الحنفية، يبيّن فيها طبيعة ما يقوم به من تحرك، حيث كان بيانه الأول واضحًا في تحديد هويّة هذه الحركة، وذلك حينما صرّح بأنه يقوم بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليصلح واقع الأمة الإسلامية، وذلك بالسير - في منهجه الإصلاحية - على النهج النبوي ومن بعده السيرة العلوية، حيث يكمل المنهجان كل منهما الآخر.

وانسجامًا مع مقتضيات البحث العلمي والتاريخي، ولفهم أكثر جلاءً ووضوحًا للملابسات حادثة كربلاء، يتوجّب علينا ذلك بحث

موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من حيث كونه فريضةً إسلامية، وذلك انطلاقاً من واقع التطبيق الفعلي له في السيرة النبوية وكذلك في عصور المعصومين عليهم السلام.

فريضة الأمر بالمعروف في المجتمع الإسلامي

◀ فهم الفريضة الشرعية لا يتأتى بمجرد النظر البحت وتفكيك مفردات الآيات القرآنية بغية الوصول إلى التطبيق الصحيح لها، بل يرتكز على دراسة الممارسة العملية للمعصوم الذي يمثل دليل المكلف في أداء الفروض الشرعية. وكربلاء تمثل تطبيقاً عملياً لواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لما كان المجتمع الإسلامي يعانیه من أمراض وصلت إلى جذوره.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة إسلامية تردّد ذكرها في آيات القرآن الكريم، كما في الآيات البيّنات:

١. ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١).

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

٢. ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(١).

٣. ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٢).

وأكثر المفاهيم الإسلامية الواردة في القرآن الكريم لم يحدّد مفهومها قرآنيًا، وإنما ورد ذلك على لسان النبي ﷺ أو الأئمة من أهل البيت عليه السلام. كما أن بعضها يفهم من خلال الممارسة العملية للمعصوم أو ما يُقَرَّر من تطبيق المسلمين لها وقبول المعصوم بتلك الممارسة، فيكون تحديدها من خلال دراسة الواقع الاجتماعي الإسلامي تاريخيًا.

وانطلاقًا من هذه النقطة بالذات، تكون دراسة النهضة الحسينية إحدى تلك النماذج المهمّة في فهم وتحديد معنى هذه الفريضة. ذلك أن الإمام الحسين عليه السلام أشار بصريح العبارة إلى أن تحرّكه في مواجهة السلطة الأموية - في حينها - كان ينطلق فيه من واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهي فريضة تتنوّع أساليب أدائها مع اختلاف الظروف الموضوعية وما تتطلبه تلك الظروف من طبيعة مناسبة للمعالجة.

ولذلك، فإن في حال تمت دراسة النهضة الحسينية في جوانبها

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٤.

المتعدّدة وخلفيات القيام بالثورة ومنطلقاتها، سوف يعطي ذلك فهماً أدقّ لطبيعة التحرك الحسيني، ومن ثمّ فهماً أعمق لممارسة هذه الفريضة الإلهية.

□ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وآلية التطبيق

والذي يبدو أن هذه الظاهرة الشرعية في البدايات الأولى للتاريخ الإسلامي - في عصر رسول الله ﷺ - كانت تسير في خطين متلازمين، هما:

الخطّ الأول: التربية:

حيث يُراد من المجتمع الإسلامي أن يمارس فيه دور التوجيه والإرشاد نحو طريق الهداية وأداء الفروض الدينية، وهو ما يمكن تسميته بدور الوقاية. وهو ما يعني تعويد وتربية أبناء المجتمع على الانقياد للخطّ المستقيم. وهو ما تؤدّيه عبارة (الأمر بالمعروف). وإلى الوقاية، يمارس المجتمع عملية العلاج عن طريق (النهي عن المنكر). ففي حال لم يستجب البعض فأنحرفوا عن الخطّ المستقيم، يقوم المجتمع بإرجاعهم وهدايتهم إلى الجادة من جديد، ليبقى المجتمع - بمجموعه - ضمن طريق الهداية وبعيداً عن مواطن الضلال والغواية، وذلك بما يحمله الدين من مسؤولية للأفراد تجاه مجتمعهم.

وهذه العملية التربوية - جانباً من جوانب فريضة الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر - تتمثل فيما يقوم به الأنبياء من واجب الدعوة إلى الدين والإيمان به والالتزام بأداء فروضه وأحكامه. كما تتمثل أيضاً فيما يقوم به جمهور المؤمنين حينما يتواصلون فيما بينهم بالصبر والرحمة، ويحث بعضهم بعضاً على أداء الفروضة الشرعية. وهذا في شقّه الوقائي. يقول تعالى واصفاً طبيعة المجتمع المسلم والعلاقة القائمة بين أفرادها:

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْيَمِينَةِ ﴿١٨﴾﴾^(١).

أما في الجانب العلاجي، فذلك مما يقوم به الحاكم الشرعي من إقامة الحدود وردّ المظالم إلى أهلها، وزجر المخالفين وردّهم عن غيهم وضلالهم، وهو جانب يتشارك معه فيه أبناء المجتمع فيما يمارسه المؤمنون من رقابة اجتماعية تحافظ على وحدة المجتمع ضمن إطار إسلامي عام تراعى فيه الحرمان وأداء الأحكام الشرعية كما أمر بها الله سبحانه وتعالى وبلغها رسوله الأمين ﷺ.

الخطّ الثاني: الإعلام:

ويقصد به نشر أجواء الإيمان من خلال حثّ المؤمنين لالتزام مبادئ الدين وقيمه، بما يشيحه القائمون على المجتمع من التبشير بخيرية الإنسان وصلاحه فطرياً وأهمية القيام بالفروض والأحكام الشرعية وأدائها غير مجتزأة أو منقوصة.

(١) سورة البلد، الآيتان: ١٧ - ١٨.

ومن تطبيقات هذا الخطّ في واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما كان يقوم به النبي ﷺ من بيان للأحكام الشرعية فيما كان يؤدّيه من خطب في المسجد يشرح فيها لمجتمع المؤمنين قيم ومبادئ هذا الدين الحنيف. وهو أمر مارسه بعده أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في سنّي حكمه الأربع، إذ تمثّل خطب نهج البلاغة نوعاً من الإعلام الديني لأهداف وقيم الدين الإسلامي وحجّة على أولئكم المخالفين لردعهم عن غيهم وضلالهم، وترسيخاً لقلوب المؤمنين والسالكين طريقه القويم.

كما أن حركة النهضة الحسينية تمثّل في جانب كبير منها عناية واضحة بهذا الجانب التوجيهي الإعلامي منذ انطلاقتها المكيّة، واستمرّ إلى ما بعد شهادة أبطالها الأبرار. إذ تمثّل خطب الإمام الحسين وكتبه، ومعه خطب السيدة زينب عليها السلام والإمام زين العابدين عليه السلام الجانب الإعلامي الذي رافق وتلا الحادثة، وهو دور ساهم - بصورة واضحة - في فضح الممارسات الأموية الظالمة وغير الإنسانية في واقعة كربلاء، ومن ناحية ثانية بيّن مقدار ما لحق بأهل البيت عليهم السلام من مظلومية على يد هذه الطغمة الفاسدة.

وهذان الخطّان (التربية والإعلام) يمثّلان ركيزتي هذه الفريضة، ولا ينفكان عن بعضهما، فهما يسيران في خطّين متلازمين، يعضّد أحدهما الآخر في بيان الشريعة وأهدافها وقيمها العالية.

الفريضة الشرعية وأساليب التطبيق

◀ يقتصر البحث الفقهي في بيان الحكم الشرعي لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على حالاته الفردية، ولا يتعرّض لبيان حدود وطبيعة ممارسة هذه الفريضة في حال كانت إنكارًا لظاهرة اجتماعية عامّة، وهي طبيعة النهضة الحسينية. ومن هذه الناحية تكمن دراستها فقهيًا.

فهم الفريضة الشرعية لا يتأتى بمجرد النظر البحث إلى الآيات القرآنية ومحاولة تفكيك مفرداتها بغية الوصول إلى التطبيق الصحيح لها، وإنما يجب أن يرتكز تحديد معاني الحدود الشرعية وأساليب تطبيقها على الممارسة العملية للمعصوم الذي يمثل دليل المكلف في أداء الفروض الشرعية، والأخذ بمبادئها. وفي تحليل واقعة كربلاء المؤلمة، نجد أنها تمثل تطبيقًا عمليًا لواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد سبقت الإشارة إلى أن هذه الفريضة وقاية (الأمر بالمعروف) وعلاج (النهي عن المنكر)، وحادثة كربلاء تمثل ذلك الجانب العلاجي لما كان المجتمع الإسلامي يعانيه من أمراض وصلت إلى جذوره، وهو ما

يتطلب من الإمام أن يعالج المجتمع من خلال عملية هدم لبناؤه وعلاقاته الحالية، وفرض واقع جديد.

وهذا النوع من الممارسة يندرج ضمن المرحلة الأخيرة من مراحل النهي عن المنكر، ذلك أن الفقهاء يشيرون إلى أن: «لإنكار المنكر مراتب، هي:

- الأول: إظهار الانزجار القلبي والكره القلبية.
- الثاني: الإظهار بالقول واللسان.
- الثالث: [الإظهار] باليد والفعل.

ولكلّ هذه المراتب الثلاث مراتب متفاوتة أيضًا، الأيسر فالأيسر. ولا تصل النوبة إلى كل لاحق من حصول المقصود بالسابق. فيجب دفع المنكر بالقلب أولاً، بإظهار الكراهة. وإن لم ينفع ذلك انتقل إلى الإعراض، واقتصر على الأيسر فالأيسر. وإن لم ينفع ذلك انتقل إلى اللسان، مع مراعاة الأيسر من القول فالأيسر. ولو لم ينفع ذلك، انتقل [المنكر] إلى الضرب»^(١).

والملاحظ من لغة هذه المسألة الفقهية هو اقتصارها في بيان الحكم الشرعي لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على حالاته الفردية،

(١) مهذب الأحكام في بيان الحلال والحرام، السيد عبد الأعلى السبزواري (ت ١٤١٤هـ)، نشر: مكتب السيد السبزواري - قم، ط ٤، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، ج ١٥ / ٢٢٣ - ٢٢٤.

ولا تتعرض لبيان حدود وطبيعة ممارسة هذه الفريضة في حال كانت إنكاراً لظاهرة اجتماعية عامّة، وهي طبيعة ما تناوله في حادثة كربلاء. إذ ينطلق التحرك الحسيني لمعالجة ما وصل إليه المجتمع الإسلامي حينها، وهو ما لا تتحدّث عنه مثل هذه المسائل. ولذلك يمكننا أن ندرك أهمية دراسة النهضة الحسينية من الناحية الفقهيّة، أيضاً، إذ إنها توسّع البحث الفقهي، بحيث لا يُقتصر لاحقاً على تناول هذه الموضوعات من الناحية الفردية فقط.

كما أن البحث الفقهي - من جهة أخرى لا يتناول - في معظمه - الآلية التنفيذية لكلّ درجة منها. ذلك أن أداء هذه الفريضة يختلف من وقت إلى آخر، ومن مجتمع إلى مجتمع ثانٍ، ومن ظروف موضوعية إلى أخرى؛ وذلك تبعاً للوضع الاجتماعي الذي يعيشه الواقع الإسلامي. فإذا كان مجتمع من المجتمعات يعاني من ظهور بعض الممارسات السلبية المتنافية والأحكام الشرعية، ولا تزال في بداياتها ولا يمكن عدّها ظاهرة عامّة، تختلف آلية المعالجة فيها عن ذلكم المجتمع الذي أخذت بعض الظواهر مأخذها منه، بحيث لا يكون الحلّ الفردي أو المعالجات الموضوعية مثمرة.

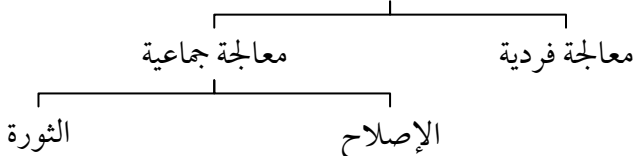
□ بين الإصلاح والثورة

فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمكن أن يمارسها الفرد ضمن محيط الأسرة، وبخاصّة من قبل الوالدين اللذين يتحمّلان مسؤولية كبيرة تجاه توجيه أبنائهم نحو التزامهم أداء الأحكام الشرعية

على خير وجه. ويستطيع الفرد أن يمارس هذه الفريضة تجاه أفراد مجتمعه، وبخاصة من يملك تأثيرًا مباشرًا تجاههم، كما هي الحال من قبل الأصدقاء الذين يتواصلون بفعل الخيرات والتزام الفروض الشرعية. ولكن هذه الممارسات تبقى تطبيقات على المستوى الفردي لواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ويمكن الارتقاء بمستوى تطبيق هذه الفريضة على الجماعة، بحيث تكون نتائجه عامة تمس المجموع العام للمجتمع الإسلامي. وهو ما يتنوع إلى معالجات إصلاحية، وأخرى ثورية (جذرية). ففي حال كان مجتمع من المجتمعات المسلمة يعاني من تصدّعات قيمية في بعض جوانبه التي يمكن ترميمها، يكفي في هذه الحال أن يبادر بعض المعنيين بترميم تلك التصدّعات دون أن يخلّ ذلك بالبنية الاجتماعية. وهو ما يختلف عما إذا وصلت التصدّعات في مجتمع آخر إلى الجذور، بحيث يكون الترميم والمحافظة على البنية الاجتماعية أمرين مستعصيين. إذ يتطلّب الأمر - حينها - مبادرات جذرية تهدم تلك البنية من أجل إعادة بناء المجتمع على أسس وقيم دينية صحيحة. وفي كلا الحالتين نستطيع أن نطلق على المعالجة أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر، إلا أنها في الأولى تسمّى (إصلاحًا)، وفي الثانية تسمّى (ثورة).

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر



والإصلاح الاجتماعي في الإسلام من قبيل بعض الخلافات التي قد تحدث بين القبائل العربية بسبب بعض العصبية الجاهلية، فينبري مجموعة من المؤمنين بالإصلاح بينهما، كما هو مفاد الآية الكريمة: ﴿وَإِن طَافَيْنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلَوْا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغْت إِحْدَهُمَا عَلَى الْآخَرَى فَقِنِلُوا الَّتَى بَغَى حَتَّى تَفَى إِلَى إِلَهٍ أَمَرَ اللَّهُ فَإِن فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسُطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(١). فما قد يحدث بين فصليين من المسلمين من خلاف حادّ قد يؤدّي إلى حالٍ من الاقتتال بينهما، يشكّل حالاً من التصدّع داخل البنية الاجتماعية الإسلامية. وما تنادي به الآية الكريمة - هنا - هو التصدّي لمثل حالات التصدّع تلك، وإرجاع الأمور إلى نصابها الصحيح، وذلك من خلال حلّ ما وقع بينهما بالعدل والإحسان، دون تحييز لطرف على حساب الطرف الآخر، والله تعالى من صفاته العدل، ويحبّ من يتحلّى بهذه الصفة النبيلة في معالجة الخلافات الداخلية في المجتمع المسلم - كما هو صريح الآية.

بينما الثورة هي انقلاب على الواقع وتغيير جذري له، وبمعنى آخر، هي: هدم للوضع السابق وتأسيس لبناء اجتماعي جديد مغاير. وهو من قبيل ما نحن بصدد الحديث حوله في تحليل النهضة الحسينية التي كانت ثورةً على واقع اجتماعي فاسد لا يمكن الحديث فيه عن ترميمات وترقيعات جانبية. وذلك بسبب ما وصل إليه الوضع - حينها - إلى ما يمكن أن نطلق عليه نقطة التفجّر الداخلي بسبب تراكمات من

(١) سورة الحجرات، الآية: ٩.

المخالفات الشرعية بدأت بعد رحيل رسول الله ﷺ بمدة وجيزة، حيث بدأت مخالفات بسيطة إلى أن بلغت من الحد الذي لم تعد تنفع معه أنصاف الحلول أو المعالجات الموضوعية. وهي النقطة التي سببها بوضوح أكثر في نقاط قادمة. ولذلك يجب التنبيه على أن النهضة الحسينية لم تكن صراعاً بين قبيلين من المسلمين أو اتجاهين، وإنما هي ثورة على واقع إسلامي فاسد وصل إلى الذروة قد يؤدي السكوت عن هذه الحال إلى وضع اجتماعي تنمحي معه الكثير من المعالم الدينية، فلا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ومن الدين إلا رسمه.



الفصل الثاني

النهضة الحسينية وطبيعة التحرك

- المجتمع الإنساني والتغيرات الجذرية
- الدعوة الإسلامية وضرورة تغيير الواقع
- الثورة الحسينية والقراءة الصحيحة

المجتمع الإنساني والتغيرات الجذرية

◀ ما تشير إليه تصريحات الإمام الحسين عليه السلام - وكذلك أحاديث أهل البيت عليهم السلام التي تتحدث عن واقعة كربلاء - أنها امتداد لحركة الدعوة المحمدية في الحفاظ على الدين نقياً من شوائب الأهواء الشيطانية التي قد يرتكبها بعض حكام الجور ممن يتسلطون على رقاب المسلمين. والأمر - حينها - لم يكن لمجرد تولي شخص يزيد للسلطة، وإنما لتراكمات أخرى قام بها من سبقه، ويزيد يمثل حلقة ضمن تلكم التراكمات.

ما يحدث غالباً في المجتمعات الإنسانية - ضمن الرؤية الدينية - أن تحدث فيها تجاوزات مخالفة للفقرة الإنسانية السليمة من قبل طبقة من المتنفذين في المجتمع، وهناك من يكون ضحيةً لمثل هذه التجاوزات. وهذه التجاوزات غالباً ما تبدأ بصورة فردية ومحدودة، وسرعان ما تتسع رقعتها أفقياً، بحيث تشمل شريحة أوسع مع امتداد الفترة الزمنية، وعمودياً من حيث تجذر وتعمق تلكم التجاوزات بين أبناء المجتمع.

وهذه التجاوزات تُحدث شروخاً اجتماعية طبقية وعنصرية ومناطقية من نواحٍ متعدّدة، وهو الأمر الذي قد يستدعي لاحقاً انفجار الوضع الاجتماعي من قبل الشريحة الواسعة المتأثرة بتلكم التجاوزات.

كما أنه في أحيانٍ أخرى، ينبعث من أبناء المجتمع من ينادي بالحقوق ويطالب بتصحيح الوضع نحو الأفضل. وفي حال كانت تلكم الدعوة مؤيَّدة من الله تعالى - عن طريق أحد الأنبياء - كانت تلكم الثورة على الوضع الفاسد هي الدعوة الدينية الجديدة التي بعث الله أنبياءه بها تخليصاً لعباده مما يعانونه من ظلمٍ وجورٍ وفسادٍ لم تعد معه الترفيعات والترميمات لبعض الجوانب أن تعالج أساسات البنية الاجتماعية المتصدّعة.

وهذه الحال كما تحصل لمجتمعات غير متديّنة، كما هي مع المجتمع الجاهلي الذي كان يعيش حالاً من الفساد الاجتماعي التي كان يعيش ضحيتها الغالبية العامّة من الناس، فكانت الثورة التي أحدثها رسول الله ﷺ، يمكن أن تحصل أيضاً للمجتمعات المتديّنة، وذلك من قبيل بعث نبي الله عيسى عليه السلام إلى أتباع نبي الله موسى عليه السلام، إذ بعث عليه السلام إلى اليهود ناصحاً وداعياً لهم لدعوته الجديدة. وفي كلتا الحالين كانت المعالجة والثورة على الواقع القائم ضمن خطّ الرسالات الإلهية.

وما نؤمن به - نحن الإمامية - أن ما قام به الإمام الحسين منسجم مع هذا الخطّ الرسالي الإلهي، حيث كانت نهضته موجّهة نحو تصحيح مسار المجتمع الإسلامي الذي كاد أن يبلغ حافة الانهيار بتسلّط أناس

من قبيل يزيد بن معاوية، الذي كان وصوله إلى السلطة دون وجود أي نوع من المعارضة يشكّل حلاً من الانقلاب على قيم ومبادئ الدين الذي بشرّ ودعا وضحّى من أجله النبي محمد ﷺ. إن ما نفهمه من تصريحات الإمام الحسين عليه السلام وكذلك أحاديث أهل البيت عليهم السلام التي تتحدث عن واقعة كربلاء أنها امتداد لحركة الدعوة المحمدية في الحفاظ على الدين نقيّاً من شوائب الأهواء الشيطانية التي قد يرتكبها بعض حكام الجور ممن يتسلطون على رقاب المسلمين. والأمر لم يكن لمجرد تويّي شخص يزيد للسلطة، وإنما لتراكمات أخرى قام بها من سبقه، وي زيد يمثل حلقة ضمن تلكم التراكمات، وهو ما سنأتي على ذكره لاحقاً.

□ الإنسان وتحملّ المسؤوليتين الفردية والجماعية

وانطلاقاً من الرؤية الإسلامية، يتحمّل الإنسان مسؤولية أدائه للأحكام الشرعية وأنه محاسب على جميع أعماله، ﴿إِنَّا لَنَسْنُ عَلَىٰ نَفْسِهِءَ بَصِيرَةٌ﴾ (١٤) ﴿وَلَوْ أَلْفَىٰ مَعَاذِرُهُ﴾^(١). وكما تحمّل الآيات القرآنية الإنسان مسؤولية قيامه بالتكاليف الشرعية، تحمّله - أيضاً - مسؤولية من يحيط به في الأسرة، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾^(٢). وفي دائرة أوسع، يتحمّل الإنسان مسؤولية الحفاظ على مجتمعه ومصالحه العامّة، وهو مضمون فريضة الأمر بالمعروف

(١) سورة القيامة، الآيتان: ١٤ - ١٥.

(٢) سورة التحريم، الآية: ٦.

والنهي عن المنكر. ذلك أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض. يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَّكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (١).

ولهذا عندما ندرس حركة النهضة الحسينية، نقرأ بعض خطابات الإمام الحسين عليه السلام التي يشير فيها إلى هذه الناحية التي ينطلق فيها من حسه العالي بما يمليه عليه ضميره وتكليفه الشرعي من مسؤولية تجاه أفراد مجتمعه المسلم، إذ نراه عليه السلام يقول في خطبته بمنطقة البيضة: «إن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله، وأنا أحق من غير». فنراه في نهاية هذا المقطع يشير إلى أنه يرى في نفسه أنه الأولى بتحمل مسؤولية تغيير الواقع، ذلك أن التغيير الاجتماعي مرهون بالنخب الواعية المدركة لطبيعة مجريات الأمور العامة، حيث تتحمل هذه النخب نسبة أكبر من المسؤولية، وهي النقطة التي يشير إليها عليه السلام.

(١) سورة الأنفال، الآية: ٧٢.

الدعوة الإسلامية وضرورة تغيير الواقع

◀ كما يمثل الدين رسالة إلهية يُلزم فيها المؤمن بمجموعة من التشريعات والأحكام، يمثل تغييراً اجتماعياً وخلاصاً منشودين، وكذلك تحقيقاً لعدالة اجتماعية كانت مفقودة في ظل أنظمة ظالمة وطاقية.

بَعَثُ الأنبياء برسالة إلهية جديدة إلى أقوامهم إنما يكون بعد واقع اجتماعي فاسد، تعيش فيه شريحة واسعة من الناس حالاً من الظلم والاستبداد والجهل، وهو أمرٌ تبيّنه الآيات القرآنية التي تعدّ من الوثائق التاريخية في تصوير الواقع الاجتماعي العربي ما قبل ظهور الإسلام، وفي تصوير تداعيات الدعوة الإسلامية على واقع هذه المجتمع. ومن تلکم الصور ما تعرضه الآيات الكريمة:

▪ ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَنْوَرُونَ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا

يَحْكُمُونَ ﴿١﴾، حيث تصوّر الآيتان تلکم الحال التي وصل إليها المجتمع المكي في احتقاره للمرأة، بحيث يتوارى الفرد منهم إذا أخبر بمولوده الأثني، إذ يتمنى أن يُدسّ في التراب فيختفي عن الأنظار حياءً مما بُشّر به. ولذلك تؤسس الآية الثانية لمفهوم إنساني جديد حينما تستنكر عليهم هذه العادة السيئة، فيقول تعالى: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

■ ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ (٢). تشير الآية إلى أن ميزان الولاء والعداء في المجتمع العربي ما قبل الإسلام كان مقياساً قلبياً عشائرياً، وأن قلوب وعقول العرب - حينها - كانت مبنية على هذا النوع من العصبية المقيتة. وهو ما تغير مع ظهور الدين الإسلامي، وذلك بما أنزله الله على قلب النبي ﷺ ومن اتبعه من المؤمنين من سكينته النفس التي ألزمهم فيها أن يكون المعيار في الولاء والعداء هو القيمة والمبدأ والتقوى من الله تعالى. فالمؤمن الحق هو الأولى وذو الأهلية المتوافقة وهذا المعيار.

(١) سورة النحل، الآيتان: ٥٨ - ٥٩.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٦.

▪ ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(١). لقد بعث الله نبيه محمدًا إلى أهل مكّة (الأميين) ومن حولها؛ ليغير واقعهم بما كان عليه السلام يؤديه من وظائف ومهام غيرت من واقع مظلّم يرفل في ضلال مبين واضح إلى مجتمع متحضّر.

وهو معنى نبيّته من خطبة جعفر بن أبي طالب أمام النجاشي حاكم الحبشة، وذلك حينما طلب إليه النجاشي أن يشرح حقيقة دعوة النبي محمد عليه السلام، فكان مما أجاب به قوله عليه السلام: «أيها الملك، كنّا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الرحم، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منّا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منّا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفته، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام..»^(٢).

وتشير إليه أيضًا السيدة الزهراء عليها السلام في احتجاجها على أبي بكر، إذ

(١) سورة الجمعة، الآية: ٢.

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام (ت ٢١٨هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي، القاهرة، بدون تاريخ نشر، ج ١ / ٣٣٦.

تقول: «... وكنتم على شفا حفرة من النار مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطَّرْق، وتقتاتون القِدَّ، أذلة خاسئين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم. فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمد ﷺ بعد اللتيا والتي وبعد أن مني ببهم الرجال وذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب، ﴿كَلِمًا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾^(١)، أو نَجَمَ قرن الشيطان أو فغرت فاغرة من المشركين قذف أخاه في لهواتها ..»^(٢).

كما أن خطب أمير المؤمنين ﷺ في نهج البلاغة مليئة بهذه المعاني، فيها هو ﷺ يقول متحدثاً عن رسول الله ﷺ: «بَعَثَهُ وَالنَّاسُ ضُلَّالٌ، فِي حَيْرَةٍ وَحَاطِبُونَ فِي فِتْنَةٍ، قَدِ اسْتَهْوَتْهُمْ الْأَهْوَاءُ، وَاسْتَزَلَّتْهُمْ الْكِبْرِيَاءُ، وَاسْتَحَفَّتْهُمْ الْجَاهِلِيَّةُ الْجُهْلَاءُ، حَيَارَى فِي زَلْزَالٍ مِنَ الْأَمْرِ، وَبَلَاءٍ مِنَ الْجَهْلِ، فَبَالَغَ ﷺ فِي النَّصِيحَةِ، وَمَضَى عَلَى الطَّرِيقَةِ، وَدَعَا إِلَى الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ»^(٣).

ولذلك فإن الدين كما يمثل رسالة إلهية يلزم فيها المؤمن بمجموعة من التشريعات والأحكام، يمثل تغييراً اجتماعياً وخلصاً منشودين، وكذلك تحقيقاً لعدالة اجتماعية كانت مفقودة في ظل أنظمة ظالمة وطاغية.

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

(٢) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد (ت ٦٥٦هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجليل - بيروت، ط ٢، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، ج ١٦ / ٢٥٠.

(٣) نهج البلاغة، جمع: الشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ)، شرح: الشيخ محمد عبده (ت ١٣٢٣هـ)، دار البلاغة - بيروت، ط ١٤١٢هـ - ١٩٩١م، ج ١ / ١٨٦.

الثورة الحسينية والقراءة الصحيحة

◀ تصوير الصراع في حادثة كربلاء تصويرًا قبليًا نابع من روح الفهم العربي الذي بَعُدَّ إلى حدٍّ ما عن الفهم الإسلامي. ذلك أن قضية الإمام الحسين عليه السلام ويزيد بن معاوية لم تكن صراعًا بين أمية وهاشم، وليست صراعًا بين كتلتين سياسيتين تتصارعان حول الخلافة والحكم، وإنما كانت صراعًا بين الانحرافية المتمثلة في الحكم الأموي، وبين امتدادية الدعوة الإسلامية المتمثلة في انتفاضات العلويين وشيعتهم.

□ التصوير القبلي للنهضة الحسينية

سبقت الإشارة إلى أن تحرك الإمام الحسين عليه السلام في الثورة على يزيد بن معاوية لم يكن خلافًا بين فصيلين من المسلمين، وإنما كانت انتفاضةً على واقع اجتماعي فاسد، كان قد وصل إلى الذروة بتولي يزيد بن معاوية للخلافة. وكانت التضحية - كما سنشير لاحقًا - الحل الناجع في مثل

تلكم الظروف الموضوعية التي عاشها عليه السلام^(١). ولكنّ هذه النظرة لم تكن واضحة لكثير من جمهور المسلمين، وذلك فيما تصوّره بعض المصادر على أن ما حدث كان معركة بين قبيلين، هما: بنو هاشم وبنو أمية.

وقد صدرت كتب بهذا المعنى تحلّل واقعة كربلاء بناءً على هذا الأساس القبلي أو الفئوي. وهو ما نلمسه في كتاب تقي الدين المقرئزي (ت ١٨٤٥هـ): النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، حيث تصوّر الخلافات التي حدثت بين الإمام علي عليه السلام ومعاوية، وبعدهما بين بني أمية وأهل البيت على أنها عداء تاريخي مستفحل، وأن معركة كربلاء تأتي في ذلك السياق التاريخي المتجدّد بين الفريقين. فالمقرئزي يرى - في كتابه - أن الصراع في الأصل كان بين «هاشم وعبد شمس. إذ يقال بأنهما ولدا توأمين. خرج عبد شمس في الولادة قبل هاشم، وقد لصقت إصبع أحدهما بجبهة الآخر، فلما نُزعت دُمّي المكان. فقيل: سيكون بينهما دم. فكان كذلك»^(٢). ويضع من أمثلة ذلكم الصراع ما كان بين رسول الله ﷺ وبين الحكم بن العاص^(٣)، وفي سياقه أيضًا تصوّر حادثة كربلاء.

(١) لم يكن يزيد من الدهاء بمثل ما كان أبوه معاوية. ولذلك فإن توقيت الثورة بأن تكون في عهد يزيد له مدخلية في تحقيق الأهداف بصورة أفضل. وربما لم تكن لتحقيق ذلكم النجاح لو كانت في عهد أبيه الذي عُرف عنه دهاؤه ومكره السياسيين.

(٢) النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، تقي الدين المقرئزي (ت ١٨٤٥هـ)، تحقيق: الدكتور حسين مؤنس، دار المعارف - القاهرة، ط ١٩٨٨م، ص ٣٧-٣٨.

(٣) انظر: المصدر السابق، ص ٤٤-٤٦.

ومما يؤسف عليه أن يصل هذا التصوير الفتوي إلى مجتمع الموالين لأهل البيت عليه السلام، فتصوّر الحادثة وكأنها انتقام من قبل بني أمية لأهل البيت، بحيث يكون على الأجيال اللاحقة من بني هاشم ومن والأهم أن يثاروا للإمام الحسين عليه السلام من بني أمية. وهذا تصوير لا يتماشى والرؤية الإسلامية التي لا تؤمن بمسألة الثأر الفتوي، كما أن هوية الصراع يجب ألا يكون كذلك. وقد كان هذا اللون من تصوير الصراع من المعاني البارزة التي طرفها شعراء الشيعة في العصر العثماني، حيث كانوا يستنهضون في شعرهم الهاشميين لأخذ الثأر. ومن أكد هذا المعنى - وبشكل بارز - السيد حيدر الحلي (ت ١٣٠٤هـ)، فقد كان من الظواهر البيئية في شعره.

ويبدو أن التأكيد على المسألة نابع من روح الفهم العربي الذي بعد إلى حد ما عن الفهم الإسلامي، ذلك أن قضية الإمام الحسين عليه السلام ويزيد بن معاوية لم تكن صراعاً قبلياً بين أمية وهاشم، وليست صراعاً بين كتلتين سياسيتين تتصارعان حول الخلافة والحكم، كما يجلو لبعض مؤرخي الأدب العربي أن يعدّوها، وإنما كانت صراعاً بين الانحرافية المتمثلة في الحكم الأموي، وبين امتدادية الدعوة الإسلامية المتمثلة في انتفاضات العلويين وشيعتهم.

إن التأكيد على هذه المسألة - ولو جاء عن حسن نية - يفقد قضية الإمام الحسين أهدافها ومغزاها، وما هو إلا رواسب لاشعورية خلقتها وعمقتها الدعاية الأموية، ودعاية الضالعين في ركابها من مناوئي أهل

البيت عليه السلام. فالقبيلة والخلافة لا صراع بينهما أو حولهما في حساب قضية الإمام الحسين عليه السلام ^(١).

يقول السيد حيدر الحلي:

فقل لنزارٍ سومي الخيل إنها
لها إن وهبت الأرض يوماً أرتكها
حرام على عينيك مضمضة الكرى
فلا نوم حتى توقد الحرب منكم
تساقى بأفواه الضُّبَا من أمية
فراخ المنايا في الكور لرقها
عجبت لكم ألا تجيش نفوسكم
وهذي بنو عصارة الخمر أصبحت
رقدت وهبت منك تطلب وترها
تحنّ إلى كسر الطراد عراؤها
قد انحطّ خلف الخافقين تراها
فإن ليالي الهم طال حسابها
بملومة شهباء يُذكي شهابها
مُدام نجيع والرؤوس حبابها
قد التقطت حبّ القلوب عقابها
والأ يقىء المرهفات قراها
على منبر الهادي يطنّ ذبابها
إلى أن شفى الحقد القديم طلابها ^(٢)

ويقول في موضع آخر:

أهاشمٌ لا يومٌ لك ابيض أو ترى
طوالع في ليل القتام تحالها
بني الغالبيين الألى لست عالماً
جياذك تزجي عارض النقع أغبرا
وقد سدّت الأفق السحاب المسخرا
أأسمح في طعن أكفك أم قري

(١) لمزيد من الاطلاع، راجع: معجم شعراء الحسين عليه السلام، الشيخ جعفر الهلالي، تقديم: الدكتور عبد الهادي الفضلي، مؤسسة أم القرى - بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، ج ١ / ٣١ - ٣٢.

(٢) ديوان السيد حيدر الحلي (ت ١٣٠٤هـ)، تحقيق: علي الخاقاني، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، ط ٤، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص ٦٠.

إلى الآن لم تجمع بك الخيل وثبةً كأنك ما تدرين بالطف ما جرى
هلمَّ بها شعث النواصي كأنها ذيابٌ غصًا يمرحن بالقاع ضمراً
وإن سألتك الخيل أين مغارها فقولي ارفعي كل البسيطة عثيراً
فإن دماكم طحن في كلِّ معشر ولا ثارَ حتى ليس تبقين معشراً^(١)

يصوّر السيد الحلبي المسألة على أنها ثار بين بني حرب وبني هاشم،

فيقول:

إن ضاع وثرك يا ابن حامي الدين لا قال سيفك للمنايا كوني
أولم تناهض آل حرب هاشم لا بسّرت علويةً بجنين^(٢)

□ التصوير السياسي البحت للنهضة الحسينية

ولم يقتصر تشويه النهضة الحسينية في تصويرها صراعاً فتوياً فحسب، بل إنها تُلبس لباساً سياسياً محضاً، فتصوّر على أنها صراع من أجل المنصب السياسي الذي لم يكن يزيد بن معاوية يستحقّ تبوأه، فيما يرى الإمام الحسين نفسه صاحب الأهلية لذلك المنصب.

وعندما يعرض الأمر بهذه الصورة فقط، دون بيان موقعية السلطة كما يتصوّر لها أئمة أهل البيت عليهم السلام، لا يعطي الصورة الواضحة لحقيقة هذه النهضة. فالخلافة هي من حقّ الإمام الحسين عليه السلام - كما نؤمن نحن الشيعة بذلك، ويؤمن بذلك الإمام الحسين عليه السلام أيضاً، ولكن التحرك

(١) المصدر السابق، ص ٧٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١١١.

لم يكن من أجل نيل هذا الحق، أو من أجل نيل المكاسب السياسية، فذلك ليس من منهجية أهل البيت عليهم السلام في التعاطي مع مثل هذه الأمور. ذلك أن السلطة في المفهوم العلوي هي من أجل أن يدفع الحاكم باطلاً واقعاً أو أن يقيم حقاً مضيئاً، كما يبين ذلك أمير المؤمنين علي عليه السلام^(١). هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، يجب أن يكون فهم طبيعة التحرك معتمداً على تصريحات قائد هذه النهضة ورائد مسيرتها، ذلك أنه في إعلانه الأول في مكة يشير إلى أن تحركه هذا لن يكون إلا تضحية بالنفس من أجل قضية مبدئية، يقول: «وخير لي مصرعُ أنا لاقيه، كأَنَّ بأوصالي تقطعها عسلان الفلاة بين النواويس وكربلاء... ألا من كان باذلاً فينا مهجته موطناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا». ومن كان يعلم - من البدء - أنه سيقتل، لن يتحرك من أجل نيل السلطة المغصوبة منه، فذلك تصوير ناقص للقضية، بل قد يكون تشويهاً لمبادئها التي قامت من أجلها.

□ النهضة الحسينية رجوع إلى القيم الإسلامية:

ما نؤمن به - نحن الإمامية - أن ما قام من أجله الإمام الحسين عليه السلام لم يكن تحركاً فتوياً أو شخصياً بقدر ما كان تحركاً من أجل الأمة. ذلك أن المجتمع الإسلامي كان لا يزال مجتمعاً وليداً بنى أسسه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد أراد أهل البيت عليهم السلام - ابتداءً من الإمام علي عليه السلام وليس انتهاءً بالإمام الحسين عليه السلام - أن يستمرّ بناء هذا المجتمع وفقاً للأسس التي وضعها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ولما وقع ذلكم الانحراف الواسع عن

(١) انظر: نهج البلاغة، مصدر سابق، ج ١ / ٨٠.

تلکم القيم والأسس بما ظهر من فساد وشيوع لظواهر اجتماعية آخذة في الانتشار على حساب القيم الإسلامية، وجد الإمام الحسين عليه السلام نفسه ملزماً بالقيام بواجبه، وذلك من خلال إحداث تلکم الهزة النفسية في مجموع الأمة للرجوع عن غيها وإحياء ضمائر هؤلاء القوم الذين غفلوا عن حقيقة واقعهم. وبعبارة موجزة: إن المجتمع - بما فيه من واقع فاسد - هو من دفع الإمام لخيار الثورة، وهو الخيار الذي لم يكن منه بدّ في منهج الإمام الحسين عليه السلام.



الفصل الثالث

المجتمع الإسلامي وبوادر التغيير

- بوادر التغيير بعد رحيل الرسول ﷺ
- المجتمع الإسلامي في ظلّ النظام الطبقي

مع تمكّن معاوية بن أبي سفيان عادت الروح الجاهلية إلى المجتمع العربي بعدما أذاب الدين الإسلامي جميع تلکم العصبيات^(١)، وهو الواقع الذي خرج الإمام الحسين للثورة عليه والمطالبة بعودة الروح الإسلامية الأخوية من جديد كما رسّخها النبي محمد ﷺ. وما تنبغي الإشارة إليه هنا أن المسلمين لم يصلوا إلى هذه الحال دفعة واحدة ومع بدء الدولة الأموية، وإنما كان ذلك ولید تراکمات اجتماعية توالّت على المجتمع الإسلامي بعد رحيل رسول الله ﷺ إلى أن وصلت الحال إلى ما كانت عليه أيام الإمام الحسين عليه السلام.

(١) يقول عمر فروخ حول هذه الفكرة: «كانت حياة العرب في الجاهلية قائمة على العصبية القبلية، وكانت هذه العصبية سببًا من أسباب منازعاتهم الكثيرة التي قادتهم في معظم الأحيان إلى القتال، ... فلما جاء الإسلام أغرق العصبيات وجمع العرب أمة واحدة ویدًا واحدة. ثم خطّ الأمويون سياستهم القومية، فعادت تلك العصبيات إلى الاستيقاظ من جديد». انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، دار العلم للملايين - بيروت، ط٤، ١٩٨١م، ج١/ ٣٥٣.

بواخر التغيير بعد رحيل الرسول ﷺ

◀ السياسة المالية الجديدة بعد رحيل الرسول ﷺ فرضت واقعاً اجتماعياً إسلامياً جديداً، تمثل في تضخم الثروة لدى طبقة معينة على حساب بقية الطبقات. ما أقام المجتمع العربي على قاعدة الطبقة (ارستقراطية وشعباً وعامة)، بعد أن كانوا سواءً في نظر القانون. وقد استقرّ في النفوس - حينها - أن قريشاً استأثرت بالمال، وكان ذلك مقدّمةً للفتنة، فالثورة لاحقاً.

تولى الخلافة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر، وجاء من بعده عمر بن الخطّاب، وقد كانت سياستها الحفاظ على المظهر الإسلامي العامّ وعدم الإخلال بطبيعة النظام الإسلامي العام. ولكنّ هذه السياسة شابهها نوعٌ من التغيير، وذلك بما أحدثه عمر بن الخطّاب من تغييرات في أخريات خلافته، حيث قام - حينها - بتقسيم الناس إلى طبقات، بحيث تكون الطبقة الأولى هي الأوفر عطاءً فيما الأخيرة هي الأقل من حيث العطاء المادي.

وهي حادثة يروي تفاصيلها ابن سعد (ت ٢٣٠هـ) في طبقاته، فيقول: «لما أجمع عمر بن الخطاب على تدوين الديوان، وذلك في المحرم سنة ٢٠هـ^(١)، بدأ ببني هاشم في الدعوة، ثم الأقرب فالأقرب برسول الله ﷺ، فكان القوم إذا استووا في القرابة برسول الله ﷺ، قدم أهل السابقة، حتى انتهى إلى الأنصار. فقالوا: بمن نبدأ [من الأنصار]؟، فقال عمر [بن الخطاب]: ابدؤوا برهط سعد بن معاذ الأشهلي، ثم الأقرب فالأقرب من سهل بن معاذ.. وكان أبو بكر الصديق قد سوى بين الناس في القسّم، ف قيل لعمر في ذلك، فقال: لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ، كمن قاتل معه.

فبدأ بمن شهد بدرًا من المهاجرين والأنصار، وفرض لكل رجل منهم خمسة آلاف درهم في كل سنة، حليفهم ومولاهم معهم بالسواء. وفرض لمن كان له إسلام كإسلام أهل بدر من مهاجرة الحبشة ومن شهد أحدًا أربعة آلاف درهم لكل رجل منهم. وفرض لأبناء البدرين ألفين ألفين، إلا حسنًا وحسينًا، فإنه ألحقهما بفريضة أبيهما لقرابتهما برسول الله ﷺ، وفرض لكل واحد منهما خمسة آلاف درهم، وفرض للعباس بن عبد المطلب خمسة آلاف درهم لقرابته برسول الله ﷺ، ..

وفرض لمن هاجر قبل الفتح لكل رجل منهم ثلاثة آلاف درهم. وفرض لمسلمة الفتح لكل رجلٍ منهم ألفين. وفرض لغلمان أحداث

(١) تولى عمر بن الخطاب الخلافة سنة ١٣هـ، وكانت وفاته سنة ٢٣هـ.

من أبناء المهاجرين والأنصار كفرائض مسلمة الفتح،...»^(١). ويكمل ابن سعد تفاصيل كثيرة في طريقة تقسيم عمر بن الخطاب لمجتمع المسلمين وما يستتبع ذلك من تفاوت في العطاء المالي.

وهذه السياسة المالية الجديدة فرضت واقعاً اجتماعياً جديداً، تمثل في تضخم الثروة لدى طبقة معينة من المسلمين على حساب بقية الطبقات. فما «أحدثه عمر بن الخطاب من تنظيم مالي أوجد تمايزاً كبيراً، وأقام المجتمع العربي على قاعدة الطبقات، بعد أن كانوا سواءً في نظر القانون (الشرعية)، فقد أوجد ارستقراطية وشعباً وعمامة،.. وقد استقرّ في نفوس المسلمين أن قريشاً استأثرت بالمال، وكان مهيباً للثورة ومقدّمةً للفتنة. فالثورة التي دارت على عثمان لم تكن نتيجة سياسته الخاصة وحدها، بل ونتيجة تجاوزات سياسية سابقة، ظهر أثرها الكامن حين استعدّ الظرف وحن حينه»^(٢).

وهي الحال التي أظهر معها عمر - لاحقاً - نوعاً من الندم والأسف، فقد أورد عنه ابن سعد قوله: «والله لئن بقيت إلى هذا العام المقبل، لألحقنّ آخر الناس بأولهم ولأجعلنهم رجلاً واحداً»^(٣).

(١) الطبقات الكبير، محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت ٢٣٠هـ)، تحقيق: الدكتور علي محمد عمر، مكتبة الخانجي - القاهرة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، ج ٣ / ٢٧٦ - ٢٧٧.

(٢) سموّ المعنى في سموّ الذات أو أشعة من حياة الحسين عليه السلام، الشيخ عبد الله العلايلي، دار مكتبة التربية - بيروت، ط ٢، ١٣٥٩هـ، ص ٢٣٢ - ٢٣٣.

(٣) المصدر السابق، ج ٣ / ٢٨١.

وكذلك أورد عنه قوله: «لئن بقيت إلى الحول، لألحقن أسفل الناس بأعلاهم»^(١). وهي نقطة يذكرها الدكتور طه حسين في كتابه الفتنة الكبرى: عثمان، إذ يقول هناك: «كان عمر قد فرض لكل واحد من أصحاب النبي عطاءه على مكاناتهم وسابقتهم في الإسلام، وعلى منازلهم وقرباتهم من النبي، وكان عمر يرى أن فيما فرض لهم من العطاء ما يغنيهم ويكفيهم السعي والاكْتساب، ولكنهم - مع ذلك - اكتسبوا واتَّجروا، وكان منهم من ضارب، فعظم ثراؤهم وكثرت أموالهم، فتوسَّعوا في الغنى وتوسَّعوا في العطاء أيضًا، ولم يستطع عمر أن يمنعهم من ذلك أو يردهم عنه، ... فلم يرضَ عن ذلك ولم تطبَّ به نفسه، حتَّى كان يقول: لو استقبلتُ من أمري ما استدبرت، لأخذتُ من الأغنياء فضول أموالهم فرددتها على الفقراء»^(٢).

(١) م. ن.

(٢) الفتنة الكبرى: عثمان، ضمن كتاب (إسلاميات)، الدكتور طه حسين، منشورات دار الآداب - بيروت، ط ١، ١٩٦٧م، ص ٦٧١ - ٦٧٢.

المجتمع الإسلامي في ظلّ النظام الطبقي

◀ يعد الخليفة عثمان أول من قام - من خلفاء وحكام المسلمين - باقتطاع الأراضي لمقرّبيه، مع أن بعض ما اقتطعه من أراضٍ هي أراضٍ فتحت عسكرياً، وهذه الأراضي - فقهيّاً - هي مألٌ عامٌّ لجميع المسلمين، ولا يصحّ إقطاعه لفردٍ خاصٍّ منهم.

هيأت سياسة الطبقيّة الاجتماعيّة التي ظهرت أواخر عهد عمر إلى ترسّخها في عهد الخليفة عثمان الذي استمرّ حكمه ١٢ سنة، كانت الست الأولى منها مشابهة من حيث المجرى لما كانت عليه الخلافة أيام عمر بن الخطّاب. وما ظهر من تغييرٍ واسعٍ في سياسة عثمان إنّما كان في السنوات الستّ الأخيرة، كما يعرض لهذا ابن سعد في طبقاته، إذ يقول: «لَمَّا وُلِّيَ عثمان، عاش اثنتي عشرة سنة أميراً يعمل ستّ سنين لا ينقم الناسُ عليه شيئاً، وإنّه لأحبُّ إلى قريش من عمر بن الخطّاب؛ لأنّ عمر كان شديداً عليهم، فلمّا وليهم عثمان لأنّ لهم ووصلهم. ثمّ توانى في

أمرهم واستعمل أقرباءه وأهل بيته في الستِّ الأواخر»^(١).

ولم يكن عثمان قد أحدث تغييرات تذكر في سنواته الأولى سوى ما قام به من بعض التعديلات على نظام الطبقات الذي كان قد بدأه عمر، حيث قام بتقديم قرابته، فجعلهم من الطبقة الأولى، وقد «كُلِّمَ فيها أعطى لذوي قرابته من بيت المال، فقال: (إن عمر كان يحرم قرابته احتساباً لله، وأنا أعطي قرابتي احتساباً لله). وما أشار إليه عثمان قد يستقيم عند الذين يحاولون أن يتأولوا في الفقه، فأما المصالح العامة فلا تحتمل هذا النوع من التأويل، فهذه المصالح إما أن تكون للشعب، فلا يحلُّ للإمام أن يتصرّف فيها إلا بإذنه [أي بإذن الشعب]، وإما أن تكون للإمام، فلا يحلُّ للشعب أن يعترض عليه إن تصرّف فيها»^(٢).

وما حدث في عهد عثمان كان له مدخلية واضحة في تهيئة المجتمع الإسلامي لنظام في الحكم بدأ يبتعد شيئاً فشيئاً عمّا كان عليه أيام الرسول ﷺ، ويمكن ملاحظة ذلك من الأمثلة التالية:

□ تقريب المبعدين وترسيخ الطبقة الاجتماعية

أحاط عثمان بن عفان نفسه أيام خلافته بقرابته من بني أمية، وكان على رأس هؤلاء الحكم بن العاص بن أمية وابنيه مروان والحارث، وهم ممن أبعدهم رسول الله ﷺ عن المدينة ومنعها من دخولها. وقد

(١) الطبقات الكبير، ابن سعد الزهري، مصدر سابق، ج ٣ / ٦٠.

(٢) الفتنة الكبرى: عثمان، الدكتور طه حسين، مصدر سابق، ص ٦٩١.

خالف عثمان بذلك سيرة النبي ﷺ، وكذلك سيرة من سبقه، إذ لم يسمح لهما كلٌّ من أبي بكر وعمر بدخول المدينة امتثالاً لسيرة النبي - ﷺ. يقول ابن أبي الحديد في شرحه على النهج: «أما أبوه [أبو مروان] الحكم بن العاص، فهو طريد رسول الله ﷺ ولعينه، ... ثم صار طريداً لأبي بكر وعمر، امتنعا عن إعادته إلى المدينة، ولم يقبلا شفاعة عثمان، فلما وُلِّيَ أدخله، فكان أعظم الناس شؤماً عليه، ومن أكبر الحجج في قتله وخلعه من الخلافة»^(١).

ولم يكتفِ عثمان بتقريبه لهم، بل يحكي عنه ابن سعد في طبقاته أنه كتب لمروان بن الحكم خمس خراج مصر^(٢)، وهو ما يعني خمس ميزانية دولة بأكملها، وهي ثروة ضخمة لا يستهان بها. كما أنه أعطاه في أول وروده المدينة مئة ألف درهم^(٣). وبذُلَّ المال لمروان وأمثاله لا يجب أن يُنظر إليه على أنه إعطاء لرجل مغضوب عليه من قبل النبي ﷺ فحسب، وإن كانت تلك مخالفة كبيرة لا يستهان بها، ولكنها - انطلاقاً مما نودّ الإشارة إليه - تصرف في أموال المسلمين العامّة، وإعطاء مال المسلمين العامّ لفرد واحد دون أي استحقاق أو مبرّر قانوني أو شرعي، وإثراء لطبقة على حساب بقية الطبقات الاجتماعية الأخرى.

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، مصدر سابق، ج ١٥ / ٢٣٩.

(٢) انظر: طبقات ابن سعد، مصدر سابق، ج ٣ / ٦٠.

(٣) انظر: جُهَل من أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى البلاذري (ت ٢٧٩هـ)، تحقيق: الدكتور سهيل زكّار والدكتور رياض زركلي، دار الفكر - بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، ج ٦ / ١٣٣ و ١٣٦. والغدير في الكتاب والسنة والأدب، الشيخ عبد الحسين الأميني النجفي (ت ١٣٩٢هـ)، مؤسسة الأعلمي - بيروت، ط ٣، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م، ج ٨ / ٢٥٧.

ولم يكتفِ عثمان بالعطايا لمروان، فقد ذكر ابن أبي الحديد في شرحه على نهج البلاغة أن عثمان أنكح الحارث بن الحكم [أخا مروان] ابنته عائشة، فأعطاه مئة ألفٍ من بيت المال^(١). ولما وردته صدقاتٌ من الإبل وهبها جميعاً للحارث أيضاً^(٢). كما أن عثمان أقطع سوقاً أوقفها رسول الله ﷺ بمهروز - موضع بالمدينة - على المسلمين للحارث، وذلك لقربته منه، دون أي اعتبار لحكم وقفية قام بها رسول الله لعموم المسلمين^(٣).

□ توزيع الثروة العامة على الحاشية

يقرّ عثمان على نفسه - فيما يرويه عنه البلاذري في أنسابه - بتقريبه وتوزيعه الثروة على أقاربه، إذ يقول: «حدّثني محمد بن سعد عن الواقدي عن عبد الله بن جعفر عن أم بكر بنت المسور بن مخرمة عن أبيها، قال: سمعتُ عثمان يقول: أيها الناس، إن أبا بكر وعمر كانا يتأولان في هذا المال ظلّف^(٤) أنفسهما وذوي أرحمهما، وإني تأولتُ فيه

(١) انظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، مصدر سابق، ج ١ / ١٩٩.

(٢) انظر: جمل من أنساب الأشراف، البلاذري، مصدر سابق، ج ٦ / ١٣٧.

(٣) انظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، مصدر سابق، ج ١ / ٦٧، وقد ورد اسم السوق في النهج خطأً (مهروز).

(٤) الظلّف: الأنعام. وجاءت الإبل على ظلّفٍ واحد، أي متتابعة. ووجدت الدابة ظلّفها، أي: مرعى يناسبها لا تبرحه. ووجد فلان ظلّفه، أي: مراده. والمعنى هنا: أن أبا بكر وعمر كانا يتأولان في أخذ المال مرادهما ومراد ذويهم وأرحامهم. وأنا سأفعل كما فعلا، وسأراعي صلةً رهي. انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مطبعة الشروق الدولية - القاهرة، ط ٤، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م، ص ٥٧٦، مادة: (ظلّف).

صلة رحمي». ثم يضيف البلاذري بأن عثمان «لما وليَ عاش اثنتا عشرة سنة أميراً، فمكث ست سنين لا ينقم الناس عليه شيئاً، ... ثم توائى في أمرهم [أمر الناس]، واستعمل أقاربه وأهل بيته في الست الأواخر وأهمهم»^(١). وجرّاء سياسته هذه في الإغداق على قرابته، تولدت مجموعة من طبقة الأغنياء التي أثرت على حساب بقية طبقات المجتمع، وإليك بعضاً من هذه النماذج:

١. لما أرسل أخاه في الرضاعة عبد الله بن أبي السرح إلى إفريقية، أعطاه جميع ما أفاء الله عليه من طرابلس إلى طنجة، ولنا أن نتصوّر مقدار هذه الثروة الضخمة التي لم يشرك معه فيها أحداً من جيشه ولا من بقية المسلمين^(٢).
٢. أعطى أبا سفيان في يومٍ واحدٍ مئتي ألف، وفي اليوم نفسه أعطى مروان مئة ألف من بيت مال المسلمين^(٣).
٣. لما أتى أبو موسى الأشعري من العراق بأموالٍ كثيرة، وزّعها جميعاً على أقربائه من بني أمية^(٤).
٤. عندما طلب منه عبد الله بن خالد بن أسيد الأموي صلّةً، أعطاه أربعمئة ألف درهم^(١).

(١) جل من أنساب الأشراف، البلاذري، مصدر سابق، ج ٦ / ١٣٣.

(٢) انظر: الشيعة في الميزان، الشيخ محمد جواد مغنية (ت ١٤٠٠هـ)، دار الجواد ودار التيار الجديد - بيروت، ط ١١، ١٩٨٦م، ص ٧١.

(٣) انظر: المصدر السابق، ص ٧١ - ٧٢.

(٤) انظر: المصدر نفسه.

٥. استفاد طلحة بن عبيد الله الذي دخل الإسلام فقيرًا من قرابةٍ تجمعه مع عثمان، حيث أعطاه مئتي ألف درهم في يومٍ واحد، كما أغدق عليه معاوية إلى أن أصبح من أثرياء المسلمين. وفي ذلك يفصل ابن سعد في طبقاته ما كان يملكه طلحة من ثروة هائلة، فيشير إلى أن «طلحة كان يُغُلُّ بالعراق ما بين أربعمئة ألف إلى خمسمئة ألف، ويغل بالسراة عشرة آلاف دينار أو أقل أو أكثر، وبـ [منطقة] الأعراض له غلات. وكان يرسل إلى عائشة إذا جاءت غلته كل سنة بعشرة آلاف، وكان قد قضى [دينًا] لصبحة التيمي ثلاثين ألف درهم. وقد ترك ألفي ألف درهم ومئتي ألف درهم ومئتي ألف دينار. وكان يُدخل قوت أهله بالمدينة سنتهم من مزرعة بـ [منطقة] قناة كان يزرعها على عشرين ناضحًا^(٢)، وكان أول من زرع القمح بقناة»^(٣). وفي موضع آخر يذكر بأن تركته من الأموال والعقار قدرت بثلاثين مليون درهم ومئتي ألف دينار^(٤).
٦. ويماثل طلحة في الثراء الزبير بن العوام الذي اشترك معه في الحرب ضدَّ أمير المؤمنين عليه السلام، حيث اختلف المؤرخون فيما ترك من ثروة،

(١) انظر: المصدر نفسه.

(٢) الناضح: الدابة يُستقى عليها، وكذلك تأتي بمعنى الحوض. فربما كان بمعنى: أن عشرين دابة تعمل في سقي هذه الأراضي، مما يدل على سعتها، أو أنها أرض تحتوي على عشرين حوضًا. انظر: المعجم الوسيط، مصدر سابق، ص ٩٢٨، مادة (نضح).

(٣) طبقات ابن سعد، مصدر سابق، ج ٣ / ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٤) المصدر السابق، ج ٣ / ٢٠٣.

فهناك من قدرها - حسب ابن سعد في الطبقات - ب ٣٥ مليوناً ومئتي ألف، وفي مورد ثانٍ قدرت ب ٤٠ مليوناً، فيما قدرها بعضٌ ب ٥٢ مليوناً^(١).

٧. ومن الذين أثروا بسبب السياسة الطبقية في توزيع الأموال في عهدي عمر وعثمان: عبد الرحمن بن عوف، الذي كان يعمل في صناعة الحبال التي كان تُعقل بها البعير (العقال)، وهي المهنة التي لا يُتصور أن يُثري منها عبد الرحمن كل هذا الثراء، فقد: «ترك عبد الرحمن بن عوف ألف بعير وثلاثة آلاف شاة بالنقيع، ومئة فرس ترعى بالنقيع، وكان يزرع بالجُرْف على عشرين ناضحاً، ... وكان فيما ترك ذهبٌ قُطِعَ بالفؤوس حتى مَجَلَّتْ^(٢) أيدي الرجال منه. وترك أربع نسوة، فأخرجت امرأة من ثمنها بثمانين ألفاً»^(٣).

٨. كما أن ثروة عثمان وتركته لم تكن بالقليلة، إذ يصفها ابن سعد في طبقاته فيما يرويهِ في أحداث مقتله أن «عثمان بن عفان كان له عند خازنه يوم قُتِل ثلاثون ألف ألف درهم، وخمسمئة ألف درهم، وخمسون ومئة ألف دينار، فانتُهبت وذُهِبت. وترك ألف بعير

(١) المصدر السابق، ج ٣ / ١٠٢. وانظر: سمو المعنى في سمو الذات، الشيخ عبد العلابي، مصدر سابق، ص ٢٠.

(٢) مجلت يده: تفرّجت من العمل، وتكوّن بين الجلد واللحم فيها ماء بإصابة نار أو بسبب مشقة أو معالجة الشيء الخشن. انظر: المعجم الوسيط، مصدر سابق، ص ٨٥٥، مادة (مجل).

(٣) المصدر السابق، ج ٣ / ١٢٧.

بالريذة، وترك صدقاتٍ كان يتصدَّق بها في بئر أريس^(١) وخيبر ووادي القرى قيمةً مئتي ألف دينار^(٢).

□ ظاهرة اقتطاع الأراضي العامّة

يعد الخليفة عثمان أول من قام - من خلفاء وحكام المسلمين - باقتطاع الأراضي لمقرّبيه، مع أن بعض ما اقتطعه من أراضي هي أراضي فتحت عنوةً، أي فُتحت عسكرياً، وهذه الأراضي - فقهيّاً - هي مالٌ عامٌّ لجميع المسلمين، ولا يصحّ إقطاعه لفردٍ خاصٍّ منهم.

يعقد ابن شبّة النميري في كتابه تاريخ المدينة المنورة فصلاً فيما أقطعه عثمان من أراضي على الصحابة، فيقول: «أول من أقطع بالعراق عثمان بن عفان رضي الله عنه قطائع مما كان من صوافي آل كسرى، ومما جلا عنه أهله، فقطع لطلحة بن عبيد الله: النّشاستيج^(٣)، وقطع لخبّاب بن الأرت: صَعْنَبِي، وأقطع سعد بن أبي وقاص أرضاً، والزبير إلى ناحية قنطرة الكوفة، وعديّ بن حاتم: الروحاء، وسعيد بن زيد، وخالد بن عُرْفُطَةَ، والأشعري في موضع واحد نحو حَمَام ابن عمر^(٤). وهي حقٌّ عامٌّ للمسلمين، وإذا بها تتحوّل إلى ملكيات عامّة، يثري بها جماعة على حساب مجموع المسلمين.

(١) بئر أريس: بئر على مقربة من مسجد قباء على غريبه.

(٢) طبقات ابن سعد، مصدر سابق، ج ٣ / ٧٢.

(٣) النّشاستيج: ضيعة أو نهر بالكوفة.

(٤) تاريخ المدينة المنورة، ابن شبّة النميري البصري (ت ٢٦٢هـ)، تحقيق: فهمي

محمد شلتوت، بدون ناشر وتاريخ نشر، ج ٤ / ١٠٢٠ - ١٠٢١.

ولعلنا نقف هنا مع كلمة بليغة لابن سيرين الذي يعدّ من علماء التابعين، إذ يروى عنه قوله: «لم تكن الدراهم في زمان أرخص منها في زمان عثمان رضي الله عنه، أن كانت الجارية لتباع بوزنها، وإن الفرس ليبلغ خمسين ألفاً مما يعطيهم»^(١). وهي إشارة واضحة إلى مقدار البذخ الذي وصلت إليه الطبقة المترفة في ذلكم الوقت.

□ اعتراض الصحابة على السياسات المالية

وقد لاقى عثمان اعتراضات على سياسته هذه من قبل صحابة النبي صلى الله عليه وآله، وكان أبرزهم الصحابي الجليل أبا ذر الغفاري، وكان من اعتراضاته ما يذكره المسعودي في مروج الذهب من حضوره لمجلس عثمان الذي كان يتحدّث فيه مع كعب، إذ سأله عثمان - حينها: «أترون [يا كعب] بأساً أن نأخذ مالاً من بيت مال المسلمين فننّفقه فيما يُنوّبنا»^(٢) من أمورنا ونعطيكموه؟، فقال كعب: لا بأس بذلك. فقال أبو ذر: يا ابن اليهودي، ما أجرأك على القول في ديننا. فقال له عثمان: ما أكثر أذاك لي [متوجّهاً بحديثه إلى أبي ذر]، غيّب وجهك عني، فقد آذيتنا»^(٣).

وقد نفاه عثمان بعدها إلى الشام، ولم يكن نفيه إليها أفضل حالاً من

(١) المصدر السابق، ج ٤ / ١٠٢٣.

(٢) أي: يظهر لنا من الرأي والأمر.

(٣) مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت ٥٣٤٦هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر - بيروت، ط ٥، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، ج ٢ / ٣٤٩.

بقائه في المدينة، إذ رأى ما كان يتمتع به معاوية بن أبي سفيان من قصر فاخر يضاهي قصور الأكاسرة والقيصرة^(١)، حيث أنكر أبو ذرّ على معاوية مظاهر البذخ هذه وأنه يتصرّف في أموال المسلمين العائمة على غير وجه حقّ، وفيما هو مخالف لتعاليم وأحكام الشريعة الإسلامية^(٢).

وقد كان أبو ذرّ يتحدث بذلك بين جمهور المسلمين في الشام ويؤلّب عليه الشاميين، وهو ما دفع بمعاوية أن يكتب الخليفة عثمان طالباً منه أن يخلّصه من فتنة أبي ذرّ وتألّب الناس عليه في الشام. فنصحه «حبيب بن مسلمة الفهري: إن أبا ذرّ لمفسد عليكم الشام، فتدارك أهله، إن كان لك فيه حاجة، فكتب معاوية إلى عثمان فيه، فكتب عثمان إلى معاوية: «أما بعد، فاحمل جندباً [اسم أبي ذرّ] إليّ على أعظم مركب وأوعره»، فوجهه مع من سار به ليلاً ونهاراً، وحمله على بعير ليس عليه إلا قُتب، حتى قدم المدينة، وقد سقط لحم فخذه من الجهد،

(١) بدأ معاوية والياً على دمشق منذ أيام الخليفة عمر. وعندما توفي أخوه يزيد الذي كان والياً على الأردن، ضمّ عمر بن الخطاب ولاية الأردن لمعاوية. وفي عهد عثمان، توفي والي فلسطين عبد الرحمن بن علقمة الكناني، فتولّى معاوية ولاية فلسطين أيضاً، وبعد فلسطين تولّى معاوية ولاية حمص لمرض واليها عمير بن سعد الأنصاري، لتخلّص أرض الشام كاملة تحت ولاية معاوية ابن أبي سفيان، ليكون بعد ذلك «أعظم العمّال خطراً وأعلاهم قدراً أيام عثمان. ولم يعرف تاريخ الخلافة الإسلامية والياً أتيج له من طول الولاية واتصالها واستقرارها وتدرّجها في الاتّساع كما أتيج لمعاوية». انظر: الفتنة الكبرى: عثمان، الدكتور طه حسين، مصدر سابق، ص ٧٥٠-٧٥١.

(٢) انظر حول هذه القصة: الفتنة الكبرى، الدكتور طه حسين، مصدر سابق، ص ٧٥٩-٧٦٠.

فبعث إليه عثمان، وقال له: إلحق بأي أرض شئت، فقال أبو ذر: بمكة؟

قال: لا، قال: بيت المقدس؟ قال: لا، قال: بأحد المصرين؟ قال:

لا. ولكن سر إلى ربذة، فلم يزل بها حتى مات»^(١).

□ ولاة الأقاليم

كان من أسباب ثورة المسلمين على الخليفة عثمان توليته لأقاربه من بني أمية، وقد بالغ هؤلاء في الجهر بمخالفتهم للشريعة وإبراز مظاهر الترف وبذل الأموال في غير وجهتها الشرعية، ومن أمثلة ذلك ما يذكره أبو الفرج الأصفهاني في ترجمته لـ «الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وهو أخو عثمان بن عفان لأمه، وكان من فتيان قريش وشعرائهم وشجعانهم وأجوادهم، وكان فاسقاً. ولِيَ لعثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالكوفة بعد سعد بن أبي وقاص، فشرِب الخمر، فَشَهِدَ عليه بشرب الخمر عند عثمان، فحَدَّه وعزله»^(٢).

وكان سبب عزله كما يرويها الأصبهاني نصّاً: «كان الوليد بن عقبة زانياً شَرِب خمرٍ، فشرِب الخمر بالكوفة، وقام ليصلي بهم الصبح، فصلَّى بهم أربع ركعات، ثم التفت إليهم وقال لهم: أزيدكم؟، وتقياً في المحراب، وقرأ بهم في الصلاة وهو رافع صوته:

(١) تاريخ أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٨٤هـ) (تاريخ يعقوبي)، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ نشر، ج ٢ / ١٦٣ - ١٦٨.

(٢) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، تصحيح: أحمد الشنيطي، مطبعة التقدّم - القاهرة، بدون تاريخ نشر، ج ٤ / ١٧٥.

علق القلب الربابا بعدما شابت وشابا

فشخص أهل الكوفة إلى عثمان وأخبروه خبره، وشهدوا عليه
بشربه الخمر، فأُتِيَ به، وأمر رجلاً بضربه وحده»^(١).

وما يذكره أبو الفرج في أغانيه حول الوليد بن عقبة إنما هو نموذج
لولاية آخرين أظهروا من الفساد ما أغضب جمهور المسلمين ونزع عنهم
صفة العدالة الاجتماعية المطلوبة في أي حاكم مسلم. وهذا النوع من
المجاهرة بالفسق من قبل الولاية كان له دور في الثورة على الخليفة
ومقتله فيما بعد.

□ الحكم الشرعي لولاية الطلقاء على المسلمين

بعد أن دانت كثير من القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية
بالإسلام وتعاضمت قوة المسلمين، توجه رسول الله ﷺ إلى مكة
المكرّمة فاتحاً ومخضعاً إياها للحكم الإسلامي. وقد استسلم القرشيون،
ودخل كثير منهم في الإسلام. إما خوفاً على النفس، أو طمعاً في الأمن،
ومعها الرغبة في الانسجام مع سيطرة الدين الجديد على الجزيرة
العربية.

بعد كل تلکم الحروب والمعارك التي دارت بين رسول الله ﷺ
وبين قبيلته قريش، ومعها كل تلکم المرات التي ذاقها المسلمون

(١) المصدر السابق، ج ٤ / ١٧٦ - ١٧٧.

الأوائل في مكة على أيديهم، صفح عنهم ﷺ، وأبلغهم بأنهم الطلقاء من أي عقاب أو محاكمة أو انتقام. ولكن ذلك لم يعن أن يبقى هؤلاء على السواء مع بقية المسلمين الذين أثبتوا إخلاصهم للإسلام وجهادهم بالغالي والنفيس حماية لهذا الدين، الذي لم يبلغ هذه المكانة ولم ينتشر ويصل إلى فتح مكة لولا تضحيات المهاجرين والأنصار. ولا يعد أن النبي ﷺ كان يعلم أن كثيرًا من الطلقاء لم يكن ليدخلوا في الإسلام لولا الخوف من العقاب أو الرجاء والطمع في المغنم أو الأمان الذي يرجونه ويطلبونه.

وقد ورد عنه ﷺ في حقهم قوله: «المهاجرون والأنصار أولياء بعضهم لبعض، والطلاق من قريش والعنقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة»^(١). وهو ما يعني جواز أن يتولّى أي فرد من المهاجرين والأنصار السلطة على المسلمين، ولكن ذلك غير جائز لأي من أفراد الطلقاء أو العنقاء من ثقيف. وهو معنى وحكم كان معروفًا ومتداولًا لدى عامة وجمهور المسلمين، بأن النبي ﷺ منع من تولّى الطلقاء للسلطة على رقاب المسلمين.

وهو ما نراه في أحد كتب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يردّ فيه على معاوية، أورده الشريف الرضي في نهج البلاغة، إذ يقول عليه السلام فيه: «أَمَّا بَعْدُ، فَفَقَدْ أَنَا فِي كِتَابِكَ تَذَكَّرْتُ فِيهِ اصْطِفَاءَ اللَّهِ مُحَمَّدًا ﷺ لِذِينِهِ، وَتَأْيِيدَهُ إِيَّاهُ لِمَنْ أَيْدَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ. فَلَقَدْ خَبَأَ لَنَا الدَّهْرُ مِنْكَ عَجَبًا، إِذْ طَفَقَتْ

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، ج ٧/ ٧٢٤، الحديثان: ١٩٧٣٤ و ١٩٧٣٥.

تُخْبِرُنَا بِبَلَاءِ اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَنَا، وَنِعْمَتِهِ عَلَيْنَا فِي نَبِيِّنَا. فَكُنْتَ فِي ذَلِكَ كَنَاقِلِ التَّمْرِ إِلَى هَجَرَ، أَوْ دَاعِي مُسَدِّدِهِ إِلَى النَّضَالِ.

وَزَعَمْتَ أَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ فُلَانٌ وَفُلَانٌ. فَذَكَرْتَ أَمْرًا إِنَّ تَمَّ اعْتَزَلَكَ كُلُّهُ، وَإِنْ نَقَصَ لَمْ يَلْحَقَكَ تَلْمُهُ. وَمَا أَنْتَ وَالْفَاضِلِ وَالْمَفْضُولِ وَالسَّائِسِ وَالْمُسُوسِ. وَمَا لِلطُّلُقَاءِ وَأَبْنَاءِ الطُّلُقَاءِ وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمَهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ وَتَرْتِيبِ دَرَجَاتِهِمْ وَتَعْرِيفِ طَبَقَاتِهِمْ. هَيْهَاتَ لَقَدْ حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا، وَطَفِقَ يَخْكُمُ فِيهَا مَنْ عَلَيْهِ الْحُكْمُ لَهَا. أَلَا تَرُبُّعُ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ عَلَى ظُلْمِكَ، وَتَعْرِفُ قُصُورَ دُرْعِكَ، وَتَتَأَخَّرُ حَيْثُ أَخْرَكَ الْقَدْرُ. فَمَا عَلَيْكَ غَلْبَةُ الْمَغْلُوبِ، وَلَا ظَفْرُ الظَّافِرِ. وَإِنَّكَ لَذَهَابٌ فِي التِّيهِ رَوَّاعٌ عَنِ الْقَصْدِ^(١).

إذ يتّضح من الرسالة أنها جواب على خطاب بعث به معاوية إلى الإمام علي عليه السلام يذكر فيه فضل أبي وبكر وعمر في الحكم والخلافة - كما يشير إلى ذلك ابن أبي الحديد في الشرح. والإمام - هنا - يردّ عليه بأن الدهر أظهر له عجبًا من أمر معاوية الذي يخبر الإمام علي عليه السلام بمناقب رسول الله ﷺ. وبعد ذلك يبيّن له مناقب ودرجات الصحابة وأفضلية بعضهم في السلطة، إذ هو - بهذا - كناقل التمر إلى هجر، وحامل العلم إلى من هو أعلم به منه. وبعد ذلك يشير عليه السلام إلى أنه يحشر نفسه في أمور ليس له فيها ناقة ولا جمل، فهو من الطلقاء، وليس لهذه الطبقة علاقة بمثل الأمور، إذ منعت من ممارستها بحكم شرعيٍّ من رسول الله ﷺ.

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، مصدر سابق، ج ١٥ / ١٨١.



الفصل الرابع

أهل البيت ومرحلة المواجهة

- السياسة العلوية ومحاولات الإصلاح
- المجتمع المسلم أيام الإمام الحسن عليه السلام
- أثر السياسة الأموية في تغيير الواقع الإسلامي
- نتائج عامّة مما سبق

السياسة العلوية ومحاولات الإصلاح

◀ من المفارقات التاريخية أن تصوّر عصيان معاوية وخروجه على الحاكم على أنه صراع وتنافس بين عائلتين قرشيتين، فيما تصوّر قضية الخلاف الذي دار بين الخليفة أبي بكر ومالك بن نويرة تصويراً عقائدياً وقيماً وبأنه ارتداد وخروج عن الدين. وإنه لمن الظلم التاريخي لأهل البيت أن تصوّر تضحياتهم من أجل المبادئ تصويراً عشائرياً وخلافات شخصية، فيما تصوّر الصراعات الأخرى على أنها صراعات مبدئية.

ما مرّ في الفصل السابق من إشارات ونماذج أحدثها الخليفة عثمان مثّلت البداية الأبرز لخطّ الانحراف في السياسة العامّة في ممارسة السلطة في المجتمع الإسلامي، وهو ما أدّى في نهاية المطاف إلى غضب شعبي عامّ تجاه سياسات الخليفة، ومن ثمّ محاصرته في قصره بالمدينة. وهي ثورة اشتركت فيها معظم الأقاليم الإسلامية، فكان من بينهم من أتى من الشام، ومن العراق، ومصر، واليمن. وكان من مطالبهم قيام

الخليفة بإبعاد بني أمية عن مواقع القرار والسلطة في الولايات، وكذلك أن تتسم سياسته بالعدل في توزيع المال على الرعية. ولأن استجابة الخليفة كانت سلبية، انتهت الأحداث إلى مقتله.

□ الإمام علي عليه السلام في مواجهة المخالفات المالية

وكان كل ذلك يحدث أمام ناظري الإمام علي عليه السلام، وهو يدرك أن ما طالب به الثوار كان حقاً، ولا يجوز لحاكم المسلمين أن يتهاون في مثل هذه القضايا؛ لأنها تمس حقوق المسلمين العامة. ولكن الإمام كان يعلم أن ما كان يطالب به الجمهور ليس من السهل المضي في تطبيقه، وبخاصة مع وجود طبقة كانت متنفذة ومنتفعة من تلكم التجاوزات، ولن ترضى بتحقيق تلكم المطالب. ولذلك كان جوابه لمن طالبه بتولي السلطة ليكون الحاكم الذي يحقق لهؤلاء الثوار مطالبهم، ويرجع المجتمع المسلم إلى سابق عصره النبوي أن يلتمسوا شخصاً آخر، قال عليه السلام: «دَعُونِي وَالتَّمَسُّوا غَيْرِي. فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْرًا لَهُ وُجُوهٌ وَأَلْوَانٌ، لَا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَلَا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ، وَإِنَّ الْأَفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ، وَالْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ. وَاَعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ، رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَلَمْ أَضِعْ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ، وَعَتَبِ الْعَاتِبِ. وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي، فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ، وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطُوعُكُمْ لِمَنْ وَلَيْتُمُوهُ أَمْرُكُمْ، وَأَنَا لَكُمْ وَزِيرًا خَيْرًا لَكُمْ مِنِّي أَمِيرًا»^(١).

(١) تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف - القاهرة، ط ١٩٧٠م، ج ٤ / ٤٣٤.

لقد كان يعلم أنه في حال قبل بتولي السلطة، سيواجه معارضة داخلية ذات ألوان ينخدع ببريقها بعض المسلمين، وينشغل المجتمع بصراعاته الداخلية التي لن تنتهي وتستقر. وهو ما حدث مع طلحة والزبير اللذين كانا من حاشية الخليفة، كما سبقت الإشارة إليهما وإلى ما أحدثا من ثروة طائلة في عهد عثمان.

لقد أعلننا اعتراضهما على سياسته منذ بداية توليه مقاليد السلطة، وذلك ليضمننا من البدء مصالحهما، وفي ذلك سألهما الإمام: «ما الذي كرهتما [يعني طلحة والزبير] من أمري حتى رأيتما خلافي؟»

قالا: خلافاً عمر بن الخطاب في القَسَم، إنك جعلت حقنا في القسم كحق غيرنا، وسويت بيننا وبين من لا يباثلنا فيما أفاء الله تعالى علينا بأسيافنا ورماحنا وأوجفنا عليه بخيلنا ورجلنا وظهرت عليه دعوتنا وأخذناه قسراً قهراً ممن لا يرى الإسلام إلا كرهاً.

فقال: فأما ما ذكرتما من الاستشارة بكما، فوالله ما كانت لي في الولاية رغبة، ولكنكم دعوتوني إليها وجعلتموني عليها فخفت أن أردكم فتختلف الأمة، فلما أفضت (يعني الخلافة) إليّ نظرتُ في كتاب الله وسنة رسوله فأمضيت ما دلاني عليه واتبعت، ولم أحتج إلى آرائكما فيه ولا رأي غيركما، ولو وقع حكم ليس في كتاب الله بيانه ولا في السنة برهانه واحتيج إلى المشاورة فيه لشاورتكما فيه.

وأما القسم والأسوة، فإن ذلك أمر لم أحكم فيه بادئ بدء، قد

وجدت أنا وأنتما رسول الله ﷺ يحكم بذلك، وكتاب الله ناطق به، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وأما قولكما: جعلت فيئنا وما أفاءته سيوفنا ورماحنا سواء بيننا وبين غيرنا، فقدياً سبق إلى الإسلام قوم، ونصروه بسيوفهم ورماحهم فلم يفضلهم رسول الله ﷺ في القسم ولا آثرهم بالسبق، والله سبحانه موفٍ السابق والمجاهد يوم القيامة أعمأهم، وليس لكما والله عندي ولا لغيركما إلاّ هذا، أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق، وألهمنا وإياكم الصبر. ثم قال: رحم الله امرءاً رأى حقاً فأعان عليه ورأى جوراً فردّه، وكان عوناً للحق على من خالفه»^(١).

لقد كان الإمام علي عليه السلام حازماً في مسألة التوزيع العادل للثروة، ولم يكن ليقبل أي مساومة فيها، ولو جرّ عليه هذا النوع من الحزم حرباً في مبتدأ أيام حكمه، فالسياسة لدى علي عليه السلام تعني قيادة الأمة ضمن الحدود الشرعية. فلم يكن ليقبل مسّ ولو جزء يسير من حقوق المسلمين العامّة، على حساب الاستقرار السياسي الذي قد يقتضي بعض الأحيان غضّ الطرف عن بعض تجاوزات المتنفّذين في الجهاز الحكومي السابق. فذلك لا يتقاطع ومبدأ أمير المؤمنين في ممارسة الحكم التي تعني توليه مسؤولية أداء أمانة، وما كان عليه ليقبل على نفسه أن يخون من ائتمنه. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، يعدّ التهاون في مثل هذه

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، مصدر سابق، ج ٧ / ٤١ - ٤٢.

الأمر خلافًا لمطالب الثوّار الذين انتخبوه حاكمًا يقوم بتحقيق تلکم المطالب^(١).

□ الإمام علي عليه السلام في مواجهة الولاية

وكان إلى جانب مطلب العدالة الاجتماعية في توزيع الثروة، المطالبة بعزل ولاية عثمان الفاسدين، وكان من أبرزهم معاوية بن أبي سفيان. وتنفيذًا لتلکم المطالب وانسجامًا مع ما يراه الإمام علي عليه السلام من تطبيق حرفي للشريعة، أمر بعزل معاوية عن ولاية الشام، كما أمر بعزل جميع الولاية الذين ثبتت عليهم المخالفات والتجاوزات الشرعية المالية وغيرها. ولكنّ معاوية تمرد ورفض الخضوع لأمر الخليفة الشرعي. وهي مخالفة صريحة وخروج على ولي الأمر ولجماعة المسلمين.

وهذه من المسائل التي يجب أن تكون واضحة أمام جمهور المسلمين، ذلك أن الخلاف بين الإمام علي ومعاوية لم يكن يومًا صراعًا عشائريًا أو عائليًا، وإنما هو خلاف وصراع مبدئي، ينطلق - في ظروفه الموضوعية - انسجامًا مع تداعيات الثورة على الخليفة عثمان وما ثار من أجله جمهور المسلمين. وفي جانب أهم، لا يتمتع معاوية بأدنى مؤهلات الحاكم العادل التي يجب توفرها فيمن يتولّى أمور المسلمين العامة. ويضاف إليهما ما سبقت الإشارة إليه من أن معاوية من الطلقاء الذين

(١) انظر حول هذه النقطة: أهل البيت عليهم السلام تنوع أدوار ووحدة هدف، السيد محمد باقر الصدر (ت ١٤٠٠هـ)، دار التعارف للمطبوعات - بيروت، بدون تاريخ نشر، ص ٥ - ١٥.

يشملهم حكم النبي ﷺ بعدم جواز توليهم لأمر المسلمين العامة.

ومن المفارقات التاريخية أن يُذكر عصيان معاوية وخروجه على الحاكم ويمرّ به مروراً سريعاً دون إدانة أو استنكار، بل يُصوّر في بعض المصادر على أنه صراع وتنافس بين عائلتين قرشيتين، فيما تصوّر قضية الخلاف الذي دار بين الخليفة أبي بكر ومالك بن نويرة عندما رفض تسليم ما كان يحمل من زكوات من اليمن إلى الخليفة تصويراً عقائدياً وقيماً وبأنه ارتداد وخروج عن الدين، حيث يفتي الفقهاء إلى يومنا الحاضر برّدته هو ومن حارب معه. مع أن مالك بن نويرة لم يخرج على الخليفة في ذلكم الوقت، ولم يعلن الحرب، وغاية ما فعل أنه رفض تسليم الزكاة إلى من لا يراه الحاكم الشرعي على المسلمين.

وعند المقارنة بينه وبين معاوية، فإن معاوية هنا رفض الخضوع لحكم الخليفة، وأعلن الحرب ضده، وكان الإمام علي عليه السلام ينفذ حكم الله فيما كان يمارسه معاوية من مخالفات شرعية في أسلوب إدارته، وكذلك تنفيذاً لمطالب الجماهير المسلمة التي ثارت على الولاة الظلمة من بني أمية. وإنه لمن الظلم التاريخي لأهل البيت أن تصوّر تضحياتهم من أجل المبادئ تصويراً عشائرياً وخلافات شخصية، فيما تصوّر الصراعات الأخرى على أنها صراعات مبدئية^(١).

(١) اهتمّت المصادر القديمة بتصوير الخلاف بين الإمام علي ومعاوية على أنه خلاف شخصي، وألقت الكتب في فضائل بني أمية أو بني هاشم، وهو ما ذكره المقرئ في كتابه (النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وهاشم). وسبقه إلى ذلك ابن أبي الحديد المعتزلي الذي خصص فصلاً طويلاً في شرحه على النهج في ذكر فضائل البيتين. وغيرهما من المصادر. انظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، مصدر سابق، ج ١٥ / ١٩٨ - ٢٦٩.

□ بين سياسة أهل البيت عليهم السلام وسياسة الأمويين

لم تكن أيام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في الحكم هنيئة، إذ بدأ خلافته بالخلاف مع طلحة والزبير حول موضوع توزيع الأموال، وهو ما دفعهما إلى تأليب السيدة عائشة ضده، ما أوصل الأمور إلى معركة الجمل. ومن ثم إعلان معاوية للعصيان ووقوع معركة صفين التي أدت إلى حادثة التحكيم، وبعدها انشقاق جيش أمير المؤمنين إلى مناصرين وخوارج، اضطرَّ الإمام لمحاربتهم لما كانوا يقومون به تحريب واعتداءات على أموال وأعراض المسلمين.

وقد كانت هذه الحروب المتوالية سبباً أن ينهك جيش الدولة في صراعات داخلية، وهي الحروب التي غالباً ما ينقسم الناس حولها، وتكون الرؤية غير واضحة للكثير منهم، وبخاصة مع وجود خصم للإمام ماكر يستعمل الحيلة والخداع من أجل الوصول إلى مآرب وأطماع شخصية. وهي أساليب يأبى الإمام عليه السلام الاغترار بها، وإلا فهو لا تخفى عليه مثل هذه الحيل والأساليب القذرة.

يصف الإمام علي هذه السياسة مقارناً بينها وبين سياسته، فيقول: «والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس. ولكن كل غدره فجرة، وكل فجرة كفر، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة. والله ما أستغفل بالمكيدة، ولا أستغمر بالشديدة»^(١).

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، مصدر سابق، ج ١٠ / ٢١١.

وفي تعليق ابن أبي الحديد على كلام أمير المؤمنين هذا يقول: «كان أمير المؤمنين مقيداً بقيود الشريعة مدفوعاً إلى اتباعها ورفض ما يصلح اعتياده من آراء الحرب والكييد والتدبير إذا لم يكن للشرع موافقاً، فلم تكن قاعدته في خلافته قاعدة غيره ممن لم يلتزم بذلك، ولسنا بهذا القول زارين على عمر بن الخطاب ولا ناسبين إليه ما هو منزّه عنه، ولكنه كان مجتهداً يعمل بالقياس والاستحسان والمصالح المرسلّة، ويرى تخصيص عمومات النص بالآراء وبالاستنباط من أصول تقتضي خلاف ما يقتضيه عموم النصوص، ويكييد خصمه ويأمر أمراءه بالكييد والحيلة ويؤدّب بالدرّة والسوط من يغلب على ظنه أنه يستوجب ذلك ويصفح عن آخرين قد اجترموا ما يستحقون به التأديب، كل ذلك بقوة اجتهاده وما يؤديه إليه نظره.

ولم يكن أمير المؤمنين عليه السلام يرى ذلك، وكان يقف مع النصوص والظواهر ولا يتعداها إلى الاجتهاد والأقيسة، ويطبق أمور الدنيا على الدين ويسوق الكل مساقاً واحداً، ولا يضع ولا يرفع إلاّ بالكتاب والنص. فاختلفت طريقتاهما في الخلاف والسياسة»^(١).

مع وجود خصم مخادع مثل معاوية، وانشغاله عليه السلام بحروب ثلاثة متوالية، وجيش طالما تدمّر الإمام من تحاذله وعصيان جيشه^(٢)،

(١) المصدر السابق، ج ١٠ / ٢١٢ - ٢١٣.

(٢) من أبلغ ما ورد عنه عليه السلام في وصف تحاذل جيشه خطبته التي قالها يستنهضهم بها حين ورد خبر غزو الأنبار بجيش معاوية فلم ينهضوا، ومما ورد فيها: «أَلَا وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَيْلًا وَمَهَارًا، وَسِرًّا وَإِعْلَانًا، وَقُلْتُ

ويضاف إليها ترسخ بعض العادات الجاهلية في المجتمع العربي، لم يستطع الإمام أن يقوم الكثير مما اعوجج. وهي حال سترك آثارها في عهد خليفته الإمام الحسن عليه السلام.

لَكُمْ: اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزيت قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا. فتواكلتُم وتخاذلتُم، حتى شنت عليكم الغارات، ومليكت عليكم الأوطان، وهذا أخو غامد وقد وردت خيله الأنبار، وقد قتل حسان بن حسان البكري وأزال خيلكم عن مسالحتها، ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة فيتزاع ججلها وقلبها وفلاندها ورعشها، ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام، ثم انصرفوا وإفرين ما نال رجلاً منهم كلم، ولا أريق لهم دم، فلو أن امرأ مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً، فيا عجباً عجباً، والله يميمت القلب ويحبب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفريقكم عن حقاكم، فقبحا لكم وترحاً، حين صرتم غرضاً يرمي، يُغار عليكم ولا تُغيرون، وتغزون ولا تغزون، ويعصى الله وترصون. فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر، فلتن هذه حمارة القيظ، أمهلنا يسبخ عنا الحر. وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء، فلتن هذه صبارة القر أمهلنا ينسلخ عنا البرد. كل هذا فراراً من الحر والقر. فإذا كتتم من الحر والقر تفرون، فأنتم والله من السيف أفر. يا أشباه الرجال ولا رجال، حلوم الأطفال وعقول ربوات الحجال، لو ددت أني لم أركم، ولم أعرفكم معرفة والله جرّت ندماً وأعقبت سدمًا...». نهج البلاغة، مصدر سابق، ج ١ / ٧٠.

المجتمع المسلم أيام الإمام الحسن عليه السلام

◀ أدى غياب الإمام الحسن عليه السلام، وتمكّن معاوية من الحكم إلى نتائج وخيمة على المجتمع الإسلامي، بقيت آثارها إلى يومنا الحاضر. فمع تويّ معاوية لمقاليد السلطة تحوّلت الخلافة إلى ممارسات ملكية، غلبت فيها الروحُ الجاهليّةُ المبادئ والقيم الإسلامية، فأحيا العصبية القومية، وأشاع مجالس اللهو والطرب، وأشغل الناس بالنزاعات الشخصية والأطماع المادّية، وعزّز الطبقات الاجتماعية الفاحشة.

□ الإمام الحسن عليه السلام ومجتمع المتخاذلين

استشهد الإمام علي عليه السلام وابناه الحسن والحسين عليهما السلام كانا معسكرين في النخيلة لتجهيز الجيش استعداداً لمواجهة معاوية. وهو ما لم يتمّ لاحقاً، إذ كان الجيش منهكاً من توالي الحروب، ولا يريد الدخول في صراع مع معاوية، وبخاصّة إن كان يرى المعركة مجرد صراع بين فريقين سياسيين من المسلمين لا أكثر. ويضاف إلى ذلك ما قام به معاوية من إغراء بعضهم بالمال واستمالتهم إليه.

ولذلك عندما رأى الإمام الحسن عليه السلام في جيش أبيه الإمام علي جيشاً متخاذلاً، وعازفاً عن المقاتلة، قرّر الانسحاب. فدخل المعركة مع معاوية بهذا الجيش المتخاذل ستكون نتائجها عكسية، وستزهق فيها أرواح مؤمنين قد يكون ادخارهم لمعركة وقضية أخرى (وهي ثورة الإمام الحسين عليه السلام) أولى وأفضل حالاً للمسلمين. كما أنه أراد أن يرى المسلمون حقيقة حكم معاوية، وأن يقفوا بأنفسهم على خداعه وسياسته المخالفة للشريعة. وأن من يظنّ بأن ما كان سيخوضه الإمام من معركة أمام معاوية هو مجرد صراع بين عائلتين أو قبيلين من المسلمين، ها هو يرى الإمام ينسحب عن هذه المعركة، معطيّاً الفرصة للمسلمين أن يجربوا السياسة التي اختاروها لأنفسهم.

وفي هذا السياق يشير الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ) إلى طبيعة المجتمع أيام الإمام الحسن عليه السلام ومعاونة الإمام منهم، فيقول: «ازدادت بصيرة الحسن عليه السلام بخذلان القوم له، وفساد نياتهم المحكّمة، بما أظهره له من السب والتكفير واستحلال دمه ونهب أمواله، ولم يبق معه من يأمن غوائله إلا خاصة من شيعته وشيعة أبيه أمير المؤمنين عليه السلام، وهم جماعة لا تقوم لأجناد الشام»^(١).

وما قام به الإمام الحسن هنا مشابه تماماً لما قام به الإمام علي عليه السلام بعدما استقرّت أمور الحكم والسلطة لأبي بكر. وما تشير إليه المصادر

(١) الإرشاد، الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ)، تحقيق ونشر: مؤسسة أهل البيت عليه السلام لتحقيق التراث - قم، ط ٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، ج ٢ / ١٣.

التاريخية من وقوع صلح وشروط لهذا الصلح بين الإمام الحسن ومعاوية إنما هو من وضع ودسّ بني أمية ليعطوا شيئاً من المشروعية لحكمهم، وهذا أمر يمكن التأكد منه بعد مراجعة المصادر التاريخية والموازنة بين معطياتها العلمية في خصوص هذه المسألة، ذلك أن ما يدعو إلى عدم القبول بمسألة الصلح - بالإضافة إلى عدم صحتها من حيث الدراسة الموضوعية لهذه الأخبار -، هو التضارب في شروط الصلح، وعدم الوقوف على تحديد واضح لطبيعتها، وهل ذكرت في ورقة واحدة أم أنها مجرد رسائل متبادلة بين الإمام الحسن ومعاوية، ومن ثمّ نُشِرت على أنها وثيقة صلح.

ومن ناحية ثالثة، ما نفهمه نحن الإمامية من طبيعة ما دار من صراع، أنه لم يكن صراعاً سياسياً بما نفهمه اليوم من طبيعة الصراعات السياسية، وإنما كان بين الإمام الحسن إماماً شرعياً بذل من الجهود بما يستطيع من أجل وقاية الأمة وحفظها لأن تبقى ملتزمة تعاليم الشريعة، وبين شخص يسعى للحكم بأي وسيلة من أجل السيطرة والغلبة دون مراعاة لأي ضابطة شرعية أو أخلاقية.

وهذا النوع من الصراع يمكن مقارنته بالصراعات التي دارت في التاريخ الرسالي بعامة، وكذلك في التاريخ الإسلامي بخاصة. ففي التاريخ الرسالي عندما لا يستطيع النبي الوصول - بما يبذله من جهود - إلى تأسيس الدولة الدينية، ينعزل بمن معه من المؤمنين محاولاً نشر رسالته بالطرق المتاحة، دون أن تكون هناك مواجهة أو وثائق صلح أو

ما شابه، بحيث يتمّ التنازل فيها عن حقّ من حقوق النبي، إذ لا تفاوض في مثل هذه الحقوق. وفي تاريخنا الإسلامي، نجد ما حدث مع الإمام علي عليه السلام خير مثال، إذ اعتزل الناس بعد البيعة لأبي بكر، وقام بما استطاع أن يقوم به، إلى أن أتيحت له الفرصة للقيام بدوره حاكماً عاماً على المسلمين.

في تلكم الظروف الاجتماعية المتخاذلة، اضطرّ الإمام الحسن للعزلة، وقد أدى غيابه عليه السلام، وتمكّن معاوية من الحكم إلى نتائج وخيمة على المجتمع الإسلامي، بقيت آثارها إلى يومنا الحاضر. إذ مع توالي معاوية لمقاليد السلطة تحوّلت الخلافة إلى ممارسات ملكية، غلبت فيها الروح الجاهلية المبادئ والقيم الإسلامية، فأرجع المجتمع خطوات إلى الوراء، فأحيا فيه العصبية القومية، وأشاع مجالس اللهو والطرب، وأشغل الناس بالنزاعات الشخصية والأطماع المادية، وعزز الطبقات الاجتماعية الفاحشة.

أثر السياسة الأموية في تغيير الواقع الإسلامي

◀ أشاع معاوية نظرية الجبر الإلهي بين عموم المسلمين، فانشغلت بها المؤلفات الكلامية إلى يومنا الحاضر. وما كانت إشاعة مثل هذه الأفكار إلا محاولة لتشويش فكر الجماهير بنظريات فلسفية لا تلتقي والقيم والتعاليم الإسلامية القائمة على فكرة العدل وإقامة القسط بين الناس.

كانت المخالفات الشرعية أشدّ في عهد معاوية وأكثر وضوحًا، إذ يكفي تقلّده منصب الخلافة، وهو - كما سبقت الإشارة إليه - من الطلقاء الذين أفتى رسول الله ﷺ بعدم جواز تحكّمهم على رقاب المسلمين. وكان قد بدأ - منذ أيام توليه على الشام - بتحويل السلطة وأسلوب ممارسة الحكم إلى مثيلاتها في ممالك كسرى والروم. فقد كان يسكن القصور الفارهة ويعمرها بمظاهر البذخ واللهو والطرب، وهو ما أنكره عليه الصحابي أبو ذرّ - كما مرّ سابقًا، ومعه جمع من الصحابة، وهو ما يذكره ابن أبي الحديد، إذ يقول: «وأما أفعاله [معاوية] المجانبة للعدالة الظاهرة من لبسه الحرير، وشربه في آنية الذهب والفضة، حتى

أنكر عليه ذلك أبو الدرداء، فقال له: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الشارب فيهما لتجرجر في جوفه نار جهنم). وقال معاوية: أما أنا فلا أرى بذلك بأسًا.

فقال أبو الدرداء: من عذيري من معاوية، أنا أخبره عن الرسول ﷺ وهو يخبرني عن رأيه، لا أساكنك بأرض أبدًا.

نقل هذا الخبر المحدثون الفقهاء في كتبهم في باب الاحتجاج على أن خبر الواحد معمول به في الشرع. وهذا الخبر كما يقدر في عدالته يقدر أيضًا في عقيدته؛ لأن من قال في مقابلة خبر قد روي عن رسول الله ﷺ: أما أنا فلا أرى بأسًا فيما حرمه رسول الله ﷺ ليس بصحيح العقيدة^(١).

□ السياسة الأموية مع المعارضة

وزيادةً على ذلك قمع جميع معارضيه، وكان في مقدّماتهم شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وكانت هذه السياسة بدءًا من ولايته على الشام التي حكمها إلى أيام خلافته التي استمرت أربعين عامًا، حيث «إن معاوية أمر الناس بالعراق والشام وغيرهما بسب علي عليه السلام والبراءة منه. وخطب بذلك على منابر الإسلام، وصار ذلك سنة في أيام بني أمية، إلى أن قام عمر بن عبد العزيز - رضي الله تعالى عنه -

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، مصدر سابق، ج ٥ / ١٣٠.

فأزاله. وذكر شيخنا أبو عثمان الجاحظ أن معاوية كان يقول في آخر خطبة الجمعة: (اللهم إن أبا تراب ألحد في دينك، وصدّ عن سبيلك فالعنه لعنا وبيلاً، وعذبه عذاباً أليماً). وكتب بذلك إلى الآفاق، فكانت هذه الكلمات يشارُ بها على المنابر، ... وروى أبو عثمان أيضاً أن قوماً من بني أمية قالوا للمعاوية: يا أمير المؤمنين، إنك قد بلغت ما أمّلت، فلو كففت عن لعن هذا الرجل! فقال: لا والله حتى يربو عليه الصغير، ويهرم عليه الكبير، ولا يذكر له ذاكر فضلاً^(١).

وما يشير إليه ابن أبي الحديد من كتاب معاوية يذكر تفاصيله في موضع آخر من شرحه على النهج، إذ يقول هناك: «روى أبو الحسن علي بن محمد بن أبي سيف المدائني في (كتاب الأحداث) قال: كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة: (أَنْ بَرَّتْ الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته).

فقامت الخطباء في كل كورة، وعلى كل منبر، يلعنون علياً، ويرأون منه، ويقعون فيه وفي أهل بيته.

وكان أشدّ الناس بلاءً حينئذ أهل الكوفة، لكثرة من بها من شيعة علي عليه السلام، فاستعمل عليهم زياد بن سمية، وضم إليه البصرة، فكان يتتبع الشيعة - وهو بهم عارف؛ لأنه كان منهم أيام علي عليه السلام - فقتلهم تحت كل حجر ومدبر، وأخافهم، وقطع الأيدي والأرجل، وسمل

(١) المصدر السابق، ج ٤ / ٥٦ - ٥٧.

العيون وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم وشردهم عن العراق، فلم يبقَ بها معروف منهم.

وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق: (ألاَّ يبيحوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة).

وكتب إليهم: «أن انظروا مَنْ قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته، والذين يروون فضائله ومناقبه، فأدنوا مجالسهم، وقربوهم، وأكرموهم، واكتبوا لي بكل ما يروي كل رجل منهم، واسمه واسم أبيه وعشيرته».

ففعّلوا ذلك، حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه، لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلوات والكساء والحباء والقطائع، ويفضيه في العرب منهم والموالي، فكثرت ذلك في كل مصر، وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملاً من عمال معاوية فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلاَّ كتب اسمه وقربه وشفّعه. فلبثوا بذلك حيناً.

ثم كتب إلى عماله: «إن الحديث في عثمان قد كثر، وفشا في كل مصر، وفي كل وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلاَّ واثتوني بمناقض له في الصحابة مفتعل، فإن هذا أحب إلي، وأقر لعيني، وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته، وأشد عليهم من مناقب عثمان وفضله».

فقرئت كتبه على الناس، فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجدَّ الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر.

وألقى إلى معلمي الكتاتيب فعلموا صبيانهم وغلماهم من ذلك الكثير الواسع، حتى رووه وتعلّموه كما يتعلّمون القرآن، وحتى علموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم. فلبثوا بذلك ما شاء الله.

ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان: «انظروا إلى من قامت عليه البيّنة أنه يجب علياً وأهل بيته فاحموه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه». وشفع ذلك بنسخة أخرى: «من اتهمتموه بموالة هؤلاء القوم فنكّلوا به، واهدموا داره».

فلم يكن البلاء أشدّ ولا أكثر منه بالعراق، ولا سيما بالكوفة، حتى إن الرجل من شيعة علي عليه السلام ليأتيه من يثق به فيدخل بيته، فيلقي إليه سره، ويخاف من خادمه ومملوكه، ولا يحدثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمنّ عليه. فظهر حديث كثير موضوع وهتان منتشر.

ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة، وكان أعظم الناس في ذلك بلية القراء المرآؤون والمستضعفون الذين يظهرون الخشوع والنسك، فيفتعلون الأحاديث، ليحفظوا بذلك عند ولائهم، ويقربوا مجالسهم، ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل. حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديّانين الذين لا يستحلون الكذب والبهتان فقبلوها ورووها، يظنون أنها حق، ولو علموا أنها باطلة لما رووها ولا تدينوا بها^(١).

(١) المصدر السابق، ج ١١ / ٤٤ - ٤٥.

□ الممارسة الأموية الظالمة تجاه أهل البيت

بعدما استقرت الأمور لمعاوية، حكم المسلمين حكماً أمنياً، فنشر الجواسيس والعيون في كل مدينة وبلدة، وبخاصة بعدما أمر معاوية بملاحقة معارضيه من أتباع أهل البيت، إذ كان الانتماء إليهم والحديث عن فضائلهم جريمة. وهي الحال التي اضطرَّ معها الإمام الحسن عليه السلام إلى الانعزال عن الناس، لئلا تكون لقياه مع بعضهم مدعاة لاعتقاله أو حرمانه من العطاء أو التضييق عليه في رزقه. ويمكن تصوّر مقدار العزلة التي فرضها معاوية على الإمام الحسن من تتبّع ما ترويه المصادر التاريخية والحديثية من أقواله وسيرته. فعند المقارنة بين مجموع ما روي عن كل إمام من أئمة أهل البيت عليهم السلام كلٌّ على حدّه، نجد أن مجموع ما روي عن الإمام الحسن عليه السلام هو الأقل من بينهم جميعاً:

الإمام	أحاديثه	الإمام	أحاديثه
علي	٤٤٢	الكاظم	٢٧٢
الحسن	٤١	الرضا	٣١٧
الحسين	١٠٩	الجواد	١١٣
السجاد	١٧٣	الهادي	١٨٢
الباقر	٤٤٦	العسكري	١٠٣
الصادق	٣٢١٧		

إن الإمام العسكري عليه السلام مع ما كان يعيشه من فرضٍ وحصار أيام العباسيين، روي عنه من الأحاديث أكثر مما روي عن الإمام الحسن

عليه السلام، وهذا يكفي دلالةً على مقدار الإرهاب الذي مارسه معاوية تجاه أهل البيت عليهم السلام ليمحو ذكرهم وآثارهم بين الناس^(١).

□ معاوية ونظرية الجبر الإلهي

ويضاف إلى هذه الظاهرة، ما أشاعه معاوية بن أبي سفيان في مسألة الجبر، حيث يروي القاضي أبو علي عبد الجبار المعتزلي عن شيخه أبي علي: «أن أول من قال بالجبر وأظهره: معاوية. فأظهر أن ما يأتيه بقضاء الله ومن خلقه، ليجعله عذراً فيما يأتيه، ويوهم أنه مصيب فيه. وأن الله جعله إماماً وولاه الأمر. وفشى ذلك في ملوك بني أمية. وعلى هذا القول قتل هشام بن عبد الملك غيلانَ الدمشقي رضي الله عنه. ثم نشأ بعدهم يوسف السمني، فوضع لهم القول بتكليف ما لا يطاق»^(٢).

وقد أشاع معاوية هذه الفكرة بين عموم المسلمين، فانشغلت بها المؤلفات الكلامية إلى يومنا الحاضر. وما كانت إشاعة مثل هذه الأفكار إلا محاولةً لتشويش فكر الجماهير بنظريات فلسفية لا تلتقي والقيم والتعاليم الإسلامية القائمة على فكرة العدل وإقامة القسط بين الناس.

ويبدو أن هذه الفكرة قد أشاعها معاوية منذ أيام ولايته على الشام،

(١) لمزيد من الاطلاع، راجع: تاريخ التشريع الإسلامي، الدكتور عبد الهادي الفضلي، مركز الغدير- بيروت، ط ٢، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م، ص ٢٤٣- ٢٤٦.

(٢) المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت ٤١٥هـ)، تحقيق: الدكتور محمود محمد قاسم، مراجعة: الدكتور إبراهيم مدكور، إشراف الدكتور طه حسين، بدون ناشر وتاريخ نشر، ج ٦ / .

وهذا ما نفهمه مما يُروى في نهج البلاغة عن سائل سأل الإمام علياً عليه السلام: «أَكَانَ مَسِيرُنَا إِلَى السَّامِ بِقِضَاءِ مِنَ اللَّهِ وَقَدْرًا؟»، فأجابه الإمام عليه السلام بحديث طويل، منه: «وَيُحْكَمُ، لَعَلَّكَ ظَنَنْتَ قِضَاءً لَازِمًا وَقَدْرًا حَاطِمًا؟، لَوْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، لَبَطَّلَ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، وَسَقَطَ الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ. إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ عِبَادَهُ تَحْيِيرًا، وَنَهَاهُمْ تَحْذِيرًا، وَكَلَّفَ يَسِيرًا وَلَمْ يُكَلِّفْ عَسِيرًا، وَأَعْطَى عَلَى الْقَلِيلِ كَثِيرًا، وَلَمْ يُعْصِ مَعْلُوبًا، وَلَمْ يُطْعَمْ مُكْرَهًا، وَلَمْ يُرْسَلِ الْأَنْبِيَاءُ لَعِبًا، وَلَمْ يُنْزَلِ الْكُتُبُ لِلْعِبَادِ عَبَثًا، وَلَا خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا. ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ»^(١).

□ السياسة الأموية في تخدير المجتمع

وإلى جانب تخدير معاوية للجمهور بمثل قضية الجبر الإلهي، نشر ظاهرة المجون واللهو في المجتمع الإسلامي. وقد بلغ من الوقاحة أن جعل المدينة المنورة الحاضنة لقبر رسول الله ﷺ ولجمع كبير من الصحابة إلى مجالس للهو والطرب، فأحضر فيها المغنين والمغنيات والراقصات والمخنثين، يقول الشيخ باقر شريف القرشي في كتابه حياة الإمام الحسين عليه السلام تحت عنوان: (إشاعة المجون في الحرمين): «وعمد معاوية إلى إشاعة الدعارة والمجون في الحرمين للقضاء على قدسيتها وإسقاط مكاتبتها الاجتماعية في نفوس المسلمين، يقول الشيخ عبد الله

(١) في ظلال نهج البلاغة: محاولة لفهم جديد، الشيخ محمد جواد مغنية، دار العلم للملايين - بيروت، ط ٣، ١٩٧٩م، ج ٤ / ٢٥٩.

العلالي: (وشجع الأمويون حياة المجون في مكة والمدينة إلى حد الإباحة، فقد استأجروا طوائف من الشعراء والمخنثين، من بينهم عمر بن أبي ربيعة، لأجل أن يمسحوا عاصمتي مكة والمدينة بمسحة لا تليق، ولا تجعلها صالحتين للزعامة الدينية)^(١)، وقد قال الأصمعي: دخلت المدينة فما وجدت الا المخنثين، ورجلاً يضع الأخبار والطرف، وقد شاعت في يثرب مجالس الغناء، وكان الوالي يحضرها ويشارك فيها، وانحسرت بذلك روح الأخلاق، وانصرف الناس عن المثل العليا التي جاء بها الإسلام»^(٢).

ويفصل الدكتور شوقي ضيف أكثر حول هذه الظاهرة، إذ يشير إلى أن المدينة المنورة في عهد معاوية «نهضت بالغناء نهضة واسعة، وشاركتها في ذلك مكة المكرمة، ... وقد أقبل أهل المدينة على الغناء إقبالاً شديداً، يشترك في ذلك عامتهم وخاصتهم وعبّادهم وزهادهم وقضاتهم. وكان من أشرافهم من جعل داره أشبه بالفندق للمغنين والمغنيات، على نحو ما هو ماثور عن عبد الله بن جعفر وقصد الناس لداره يسمعون بها ألوان الغناء. وقد تخرّج في هذه الدار كثير من المغنين والمغنيات.

ومن كبار المغنين الذين اشتهروا بالمدينة في هذا العصر: طُوَيْس،

(١) سمو المعنى في سمو الذات، الشيخ عبد الله العلايلي، مصدر سابق، ص ٣٠.
(٢) حياة الإمام الحسين بن علي عليه السلام: دراسة وتحليل، الشيخ باقر شريف القرشي، تحقيق: مهدي باقر القرشي، إصدار قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة - كربلاء، ط ٢، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م، ج ٢ / ١٤٨ - ١٤٩.

وهو أول من تغنى في المدينة بالغناء المتقن، وأول من صنع الهَرَج والرَّمَل في الإسلام. وسائب خائِر، مولى ابن جعفر، وهو من نقل ألحان الفرس إلى الغناء العربي. ومعبد، وهو إمامهم في الغناء غير منازع. وابن عائشة، ومالك الطائي، وعطرَد، ويونس الكاتب، ... ومن أشهر المغنيات: عزة الميلاء، وجميلة، وسلامة القس، وحبابة، وسلامة الزرقاء. ومن الطريف أن نعلم أنه كانت هناك دور مخصصة للسمع يفد عليها شباب المدينة كل ليلة، وأشهر هذه الدور: دار جميلة. وكانت تكتظ بالمغنين والمغنيات»^(١).

□ وجود طبقة من المترددين

مما ساعد على بسط السلطة الأموية هو انقسام المسلمين إلى فرق واتجاهات عدّة، فمنهم الموالون لمعاوية، وهم الفرقة المرضي عنها والمغدق عليها. ومنهم الموالون لأهل البيت عليهم السلام، وهم المغضوب عليهم والملاحقون في أرزاقهم، والمطاردون للقبض على البعض منهم، فيما البقية يمارسون حالاً من التقية التي يحافظون بها على أرواحهم وأرزاقهم وممتلكاتهم.

ومنهم من كان يطلق عليهم المعتزلة، وهؤلاء المعتزلة لا يقصد بهم تلكم الفرقة الكلامية، وإنما أولئك الذين آثروا اعتزال كلا الفريقين. وهي حال كانت موجودة منذ عهد الإمام علي عليه السلام، وهو ما نفهمه ممّا دار بين الإمام علي عليه السلام والحسن البصري، وذلك عقب معركة الجمل.

(١) تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي)، الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف - القاهرة، ط ١١، ١٩٨٩م، ص ١٤١ - ١٤٢.

فبعد أن انتهت المعركة، خطب أمير المؤمنين في أهل البصرة مقرّعاً لهم على محاربتة والوقوف مع طلحة والزبير، إذ نزل أمير المؤمنين «يمشى بعد فراغه من خطبته، فمرّ بالحسن البصري وهو يتوضأ، فقال: (يا حسن، أسبغ الوضوء). فقال: (يا أمير المؤمنين، لقد قتلت بالأمس أناساً يشهدون إلّا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، يصلون الخمس، ويسبغون الوضوء).

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: (قد كان ما رأيت، فما منعك أن تعين علينا عدوّنا؟)، فقال: (والله لأصدقك يا أمير المؤمنين، لقد خرجت في أول يوم، فاغتسلت وتحنطت وصببت على سلاحى، وأنا لا أشك في أن التخلف عن أم المؤمنين عائشة هو الكفر، فلما انتهيت إلى موضع من الخريبة، ناداني منادٍ: يا حسن، إلى أين؟ ارجع، فإن القاتل والمقتول في النار. فرجعتُ ذعراً، وجلست في بيتى، فلما كان في اليوم الثاني، لم أشك أن التخلف عن أم المؤمنين عائشة هو الكفر، فتحنطت وصببت على سلاحى وخرجت أريد القتال، حتى انتهيت إلى موضع من الخريبة، فناداني منادٍ من خلفى: يا حسن، إلى أين مرة بعد أخرى؟ فإن القاتل والمقتول في النار)، قال على عليه السلام: (صدقك، أفندري من ذلك المنادي؟). قال: (لا). قال عليه السلام: (ذلك أخوك إبليس، وصدقك، إن القاتل والمقتول منهم في النار^(١)، فقال الحسن البصري: (الآن عرفت يا أمير المؤمنين أن القوم هلكى)^(٢).

(١) أي القاتل والمقتول من أصحاب الجملاء في النار.

(٢) الاحتجاج، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي (ت ٥٤٨هـ)، تحقيق: السيد محمد باقر الخراسان، مؤسسة الأعلمي ومؤسسة أهل البيت - بيروت، ط ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ج ٢ / ٢٥٠ - ٢٥١.

وما تشير إليه هذه الواقعة هو وجود مجموعة من المسلمين الذين لم يستطيعوا تحديد موقفهم بسبب ما أحدثته تلكم الوقائع من لبس وضبابية. وهو أمرٌ يعود - في كثير من الأحيان - إلى ضعف القدرة على التحليل، وبخاصة مع مجتمع كسول لا يحب أن يتعب نفسه حتى في مجرد التفكير في مثل هذه الأمور، وإلا فأفعال معاوية لا يمكن أن يصعب تحليلها، وأنها مخالفة للشريعة. كما أن مطالبة طلحة والزبير بزيادة نصيبهما من بيت مال المسلمين لا تنسجم وروح العدالة التي ينشدها المسلمون، وها هو أمير المؤمنين يسعى لتحقيقها بينهم.

وقد امتدت هذه الظاهرة إلى عهد الإمام الحسين، وهو ما سنشير إليه في موضعه.

نتائج عامّة مما سبق

◀ الرسالة النبوية حالة إنفاذية للإنسان من نير الظلم والعدوان، وإعادة لروحية العدالة وإحياء للفطرة في تعامل الإنسان مع أخيه الإنسان. والإسلام نموذج لتلك الرسائل التي استطاع فيها النبي محمد ﷺ إنفاذ المجتمع العربي مما كان يمارس بحقّ الطبقة الضعيفة، وكذلك بما ألغاه من عصبية كانت السبب الأبرز لنزاعاتهم العسكرية التي كانت تؤدي بحياة المئات من أجل هذا النوع من الصراعات.

قبل الحديث عن الوضع الاجتماعي في عهد الإمام الحسين عليه السلام، من المهمّ تلخيص ما تمّ بيانه في هذا الفصل وما سبقه من فصول، وذلك للوقوف على موقعية هذه الحركة التي قادها عليه السلام ودورها المهمّ على مستوى الساحة الإسلامية. إذ كان عطاؤها إسلامياً عاماً قبل أن يكون فتوياً خاصاً. ومن تلكم النتائج التالي:

(١) تمرّ المجتمعات بتغيّرات في طبيعة العلاقات الإنسانية، وبخاصّة فيما يرتبط بالعلاقة بين النخبة الحاكمة والقاعدة الشعبية.

(٢) في بعض اللحظات التاريخية، تصل مجموعة من النخب إلى مواقع القرار والسلطة، ومن خلال ما يتاح لها من إمكانيات، تتحكم في مقدرات المجتمع ونهب خيراته، وخلق طبقة اجتماعية، تثرى فيها طبقة على حساب بقية الطبقات الأخرى.

(٣) لا تكفي السلطات الحاكمة في مثل هذه الظروف بنهب الثروات العامّة، بل تعمّق الفجوة بينها وبين الجمهور من خلال التضييق على أي حركة معارضة، وذلك بما تضعه من نظام أمني صارم يتحكم في جميع مفاصل المجتمع.

(٤) الرسالة النبوية هي حالة إنقاذية لهذه المجتمعات من نير الظلم والعدوان، وإعادة لروحية العدالة الاجتماعية وإحياء للفترة الإنسانية في تعامل الإنسان مع أخيه الإنسان. والرسالة الإسلامية مثال ونموذج لتلك الرسائل التي استطاع فيها النبي محمد ﷺ إنقاذ المجتمع العربي من تسلّط طبقة الأغنياء وما كانت تمارسه بحقّ الطبقة الضعيفة، وكذلك بما ألغاه الإسلام من روح قبلية وعصبيات مناطقية كانت السبب الأبرز لنزاعاتهم العسكرية التي كانت تودي بحياة المئات من أجل هذا النوع من الصراعات.

(٥) بعد رحيل رسول الله ﷺ بفترة وجيزة، برزت على السطح مرّة أخرى مسألة الطبقة الاجتماعية، وذلك بما استُحدث من نظام عامّ

صُنّف الناس على أساسه إلى طبقات اجتماعية، يعطى كل فرد بناءً على طبقته ورتبته.

(٦) في عهد عثمان بن عفان، استعان بقرابته من بني أمية، وأغدق عليهم، ما مكّنهم من التحكم بجميع مفاصل الدولة، وهو ما حوّل الخلافة الإسلامية إلى أشبه بالعوائل الملكية. وقد تلاعبت هذه العائلة بمقدرات المسلمين العامّة، وولّدت واقعًا اجتماعيًا جديدًا، بقيت آثاره إلى عهد معاوية.

(٧) في عهد عثمان، ظلّ المجتمع منقسمًا إلى فئتين بارزتين، هما: الحاشية المتنفّذة في أجهزة الدولة، والقاعدة الشعبية التي تشعر بالسخط على الوضع القائم وتطالب بتغييره. وكانت هذه الأخيرة ترى في الإمام علي عليه السلام المخلّص من تلكم التجاوزات، وأمّ لهم في إرجاع الأمور إلى نصابها.

(٨) انشغل الإمام علي عليه السلام في سنوات حكمه بحروب داخلية مع مناوئيه، ولم يستطع تغيير الواقع العربي الذي ترسّخت فيه القيم الجاهلية من جديد، فسنواته الأربع لم تكن كافية لمحو آثار تلكم التراكمات.

(٩) في عهد معاوية ترسّخت القيم الجاهلية، وذلك من خلال سياساته الاقتصادية (الطبقية الاجتماعية)، والفكرية (الجبر الإلهي)، والإدارية (الولاية)، والاجتماعية (القبضة الأمنية في التعامل مع

المعارضين)، وحوّلت الخلافة الإسلامية إلى ملكية وراثية، أشبه بالملكيات المعروفة حينها.

(١٠) وفي عهده أيضًا تعددت انقسامات المجتمع إلى:

- أ- الموالين له، وهم الطبقة المستفيدة من سياساته والراغبة في أمان ورفاهية الحكومة الأموية.
- ب- الموالين لأهل البيت عليهم السلام، وهم الفئة المغلوبة على أمرها، والمضيقّ عليها في رزقها، والملاحقة أمنياً.
- ج- المتخاذلون والمتردّدون، وهم الفئة غير المكرثة لواقع ما يجري من صراعات ونزاعات داخل المجتمع المسلم. وهي - في هذه المرحلة - كانت تشكّل الشريحة الأوسع، وهو ما تشير إليه خطابات الإمام الحسين وكمّاته عليه السلام التي سنقف عليها في الفصل القادم.



الفصل الخامس

التضحية سبيلاً وحيداً للتغيير

- المجتمع الإسلامي أيام الإمام الحسين عليه السلام
- التضحية بالنفس من أجل المبادئ
- من نتائج النهضة الحسينية
- واجبتنا تجاه الثورة الحسينية

المجتمع الإسلامي أيام الإمام الحسين عليه السلام

◀ يعلن الإمام الحسين عليه السلام إلى أنه خارج لتصحيح مسار المجتمع، ليضعه من جديد على المنهج النبوي، وهو المنهج الذي أحياه أبوه الإمام علي عليه السلام بعدما غيبته سياسات انحرفت به عن المسار الصحيح. وهي إشارة إلى مسائل التوزيع العادل والاختيار المبني على الضوابط الشرعية لولاة المسلمين، ذلك أن صلاح الأمة بصلاح أمرائها.

بوادر التغيير التي طرأت على المجتمع الإسلامي - التي مرت الإشارة إلى بعض منها - كانت جميعها تحدث أمام ناظري الإمام الحسين عليه السلام، فقد عاصر عليه السلام جميع هذه التغيرات، وكان في بعضها في موقع الحدث، وبخاصة عندما تولى الإمام علي عليه السلام مقاليد السلطة، إذ شارك أباه في تلك المعارك التي قادها الإمام علي لضبط الواقع الاجتماعي وإرجاع الأمور إلى نصابها الشرعي والقانوني.

وكان عليه السلام قد شاهد ما وقع على أخيه الإمام الحسن عليه السلام من

خذلان من قبل أفراد الجيش، وكان ذلك قبل تمكّن معاوية من السلطة. والأمر كان أشدّ حالاً بعد ذلك، وبخاصّة مع ممارسات معاوية التعسّفية وقبضته الأمنية، وتعمّده تغيير واقع المجتمع المسلم، من جمهور محافظ وملتزم، إلى مجتمع تشغله الملاهية ومظاهر الفسوق والطرب والغناء.

وللإمام الحسين عليه السلام إشارات حول وصف هذا الواقع الاجتماعي، ومن تلكم الإشارات:

(١) «ألا ترون إلى الحق لا يعمل به، وإلى الباطل لا يُتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله، فإنّي لا أرى الموت إلّا سعادة، والحياة مع الظالمين إلّا برماً».

إنه تعبير واضح وبيّن، يشير فيه عليه السلام إلى أن الموازين قد انقلبت في المجتمع المسلم، فأصبح الحق هو النادر والشاذ، ليحلّ محلّه الباطل. وهي الحال التي تبعث في الإنسان اليأس وتفضيل الموت على الحياة مع حال كهذه.

(٢) ما جاء في كتابه عليه السلام إلى رؤساء الأخماس بالبصرة: «.. وقد بعثت إليكم بهذا الكتاب وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، فإن السنة قد أميتت، والبدعة قد أُحييت، فإن تسمعوا قولي أهدكم إلى سبيل الرشاد».

وهو معنًى مشابه لسابقه، فها هو ﷺ يشتكي من شيوع الباطل (البدعة)، وخفوت صوت الحق (السنة المحمدية). وما تعنيه هذه العبارة وسابقتها أن المجتمع المسلم انقلب على عقبيه بعد رحيل رسول الله، وأن المعروف أصبح فيه منكراً والمنكر معروفاً، وليس في البين من يعترض أو يكثر لتردّي هذه الحال.

(٣) في رسالته إلى أخيه محمد بن الحنفية: «وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً^(١) ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي ﷺ أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق».

يعلن الإمام ﷺ في هذه الرسالة بأن خروجه بهدف تصحيح مسار المجتمع، ليضعه من جديد على المنهج النبوي، وهو المنهج الذي أحياه أبوه الإمام علي ﷺ بعدما غيبته سياسات انحرفت به عن المسار الصحيح. وهي إشارة إلى مسائل التوزيع العادل والاختيار المبني على الضوابط الشرعية لولاية المسلمين، ذلك أن صلاح الأمة بصلاح أمرائها.

(٤) في خطبته بمنطقة البيضة: «أيها الناس، إن رسول الله ﷺ قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام الله ناكثاً عهده، مخالفاً لسنة

(١) الأشر والبطر: الذي يتكبر عن قبول الحق.

رسول الله ﷺ، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله. ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله، وأنا أحق من غيري».

في هذه الفقرة من الخطبة إشارة واضحة إلى ترسخ حال الرضوخ والاستسلام، ولم يعد من خيار سوى الإقدام على التغيير، وهو أولى بذلك، فلن يقوم سواه إذا لم يتحرك. فالمسلمون لا يبدو أنهم مدركون لخطورة ما يعيشونه من لحظة تاريخية حرجة، سيكون السكوت والتخاذل سبباً لعواقب وخيمة.

(٥) محاورته مع عمر بن سعد يوم الطف، وذلك حينما قال له الإمام الحسين عليه السلام: «يا ابن سعد، أتقاتلني؟ .. أما تتقي الله الذي إليه معادك؟ .. فأنا ابن من قد علمت، ألا تكون معي، وتدع هؤلاء، فإنه أقرب إلى الله».

- فقال ابن سعد: «أخاف أن تهدم داري».
- فقال الإمام الحسين عليه السلام: «أنا أبنيتها لك».
- فقال: «أخاف أن تؤخذ ضيعتي».
- فقال الإمام الحسين عليه السلام: «أنا أحلف عليك خيراً منها من مالي بالحجاز».

▪ فقال: «لي عيال وأخاف عليهم من ابن زياد القتل»^(١).

ويمكننا تبين مدى تمكن حال الخضوع والاستسلام من عبارة عمر بن سعد الأخيرة، ففيها من الدلالة ما يكشف عن ذلكم الواقع المرّ.

وهناك العديد من النماذج التي ترينا ظاهرة الخنوع والخضوع التي كانت مسيطرة أيام ثورة الإمام الحسين عليه السلام، ويكفي شاهداً على ذلك ما حدث لمسلم بن عقيل مع أهل الكوفة الذين خذلوهم بمجرد انتشار خبرٍ لم يتأكدوا بعد من صدقه حول جيش قادم إلى الكوفة بعثه يزيد بن معاوية. إذ وصل بهم التخاذل أن يجرّ جثمان مسلم وكذلك جثمان هانئ بن عروة الذي كان زعيم قبيلته أمام الكوفيين دون أن تدفعهم هذه الأحداث إلى أي تحرّك يذكر^(٢).

(١) انظر: الأخلاق الحسينية، جعفر البياتي، بدون ناشر، ط ١، ١٤١٨ هـ، ص ١٧٥.
(٢) ما يمكن فهمه بخصوص خذلان أهل الكوفة لمسلم ومن ثمّ للإمام الحسين عليه السلام أنهم تعودوا حالة السلم مدّة من الزمن، ولكنهم في الوقت نفسه كانوا يرغبون في حكومة أهل البيت عليهم السلام، ولهذا صدرت منهم تلكم الرسائل للإمام الحسين عليه السلام يبلغونه فيها مبايعتهم. ولكن عندما وصلت الأمور إلى مفاصلها، وأصبحوا أمام خيار المواجهة واحتمال القتل، أو الاستسلام والتمتع بالحياة. اختار الكثير منهم الخيار الثاني. وهو شعور يمكن فهمه عندما يحصل الإنسان على سلاح يحتفظ به في منزله في حال هجم عليه لصّ يهدده به. فإن من لا ألفة له بالسلاح، يتردّد كثيراً في استعماله ومواجهة اللصّ به في حال أصبح أمام الأمر الواقع. وأهل الكوفة في مواجهتهم مع عبيد الله بن زياد ونصرة الإمام الحسين عليه السلام كانوا أشبه بهذه الحال. حيث انكشفوا أمام واقعهم. وسقطوا في الامتحان الواقعي.

وليس كل المجتمع الكوفي كان متخاذلاً وخائفاً بصورة كاملة، فقد كان هناك عدد غير قليل من المواليين لأهل البيت عليهم السلام والمجاهدين ضد الحكم الأموي. ولكنهم تعرضوا قبل وأثناء وصول مسلم بن عقيل إلى الكوفة، وكذلك بعد استشهادهم إلى الملاحقة الأمنية بعد أن وصلت رسائلهم لنصرة الحسين عليه السلام إلى عيون السلطة. إذ تعقبهم الأمويون وأدخلوا الكثير منهم إلى السجون، فيما فرَّ بعضهم إلى خارج الكوفة. إذ تشير بعض المصادر التاريخية أن عدد من كان في سجن الكوفة قبل وصول الإمام الحسين بلغ أحد عشر ألفاً ممن كتب إلى الحسين عليه السلام بالنصرة وكانوا بانتظاره لمساندته في الثورة وتأسيس دولته.

وقد أدى هذا الوضع إلى خلو الكوفة - تقريباً - من الأنصار، وكان ذلك من أسباب تغير موازين المعركة وقلة أنصار الإمام في كربلاء. وفيما بعد حادثة كربلاء، كان هؤلاء هم الذين بدأت على أيديهم بدايات الثورات العلوية، بدءاً من ثورة التوابين والمختار الثقفي وما تلاهما.

التضحية بالنفس من أجل المبادئ

◀ إن دور التضحية لا يأتي إلا إذا فشلت كل الوسائل والأساليب الأخرى في مجال التغيير الاجتماعي. ويكون هذا - عادة - في المجتمع الذي يجيم عليه الخمود والخلود إلى المسكنة والذلة. في المجتمع الذي يفقد روح الجهاد من أجل الكرامة والعزة، والذي لا ينطوي على روح النضال من أجل المصير الإنساني السعيد. وهذا ما نراه جلياً في واقع ذلكم المجتمع الذي كان يرضى بالذل والهوان، فما كان من الإمام إلا أن ضحى بنفسه.

تقسم الحركات الاجتماعية - على أساس من وجود تخلف في تطبيق النظام الاجتماعي - إلى ثلاثة أنواع:

١- حركة إصلاحية:

وتنبثق نتيجة تخلف جزئي في تطبيق النظام، ويصدر القائمون بها عن أداء المسؤولية الاجتماعية المعروفة بواجب (الأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر) في نطاق شروطها الشرعية، أمثال: احتمال التأثير، وإصرار المخالف على المخالفة، وعدم لزوم الضرر في مجالاته المعروفة، وما إليها مما يدرجها في قائمة الواجب الكفائي.

٢- حركة انقلابية:

وتنبثق بسبب انحراف الحاكم وفقده صفة العدالة - بمفهومها الشرعي - التي هي شرط أساسي في الحكم - واستمراريته على المخالفة متمردًا على النظام الاجتماعي في مجال الحكم، ويستهدف من ورائها القائمون بها عزل الحاكم، لكي يستبدل به آخر يتوفر على شروط الحاكم العادل.

٣- حركة ثورية:

وتنبثق عن المخالفة الشاملة في تطبيق النظام الإسلامي، بإبعاده عن حياة المجتمع، أو بإبداله بنظام آخر غير إسلامي. ويهدف القائمون بها إلى إعادة النظام الإسلامي إلى مجال التطبيق ثانية.

وفي كلتا الحركتين (الانقلابية والثورية) تُتبع طريقتان، هما:

١. طريقة التدرج: ويراد بها اتخاذ الوسائل والأساليب اللاعنفية.
٢. طريقة الثورة: ويراد بها اتباع الوسائل والأساليب العنفية، وذلك عند عدم جدوى الطريقة السابقة.

وفي مجال الإقدام على الثورة، واتباع الوسائل العنيفة من أجل الإطاحة بالحاكم المنحرف - فسقاً أو كفرًا - أو من أجل إعادة الإسلام إلى مجال التطبيق الشامل، تتنوع نتائج الثورة إلى نوعين، هما:

١. الإطاحة الفعلية بالحاكم المنحرف في الحركة الانقلابية، أو إعادة الإسلام فوراً في الحركة الثورية، الشيء الذي على أساس منه تعدد الثورة ناجحة نجاحاً فعلياً.

٢. الإطاحة أو الإعادة - المذكورتين - في المستقبل، نتيجة الوعي الذي تنشره الحركة، وبسبب الجو السياسي الذي تهيؤه لتحقيق أهدافها وهو ما نستطيع أن نعبر عنه بالتضحية بمعناها الخاص.

ذلك أن الحركة في النوع الأول من هذين النوعين الأخيرين قد لا تنطوي على تضحية، في الوقت الذي يرى أن الحركة في النوع الثاني لا تقوى أن تصل في المستقبل إلى تحقيق ما استهدفته إلا بالتضحية - لأنها العامل الأخير في مجالها، كما ستقف عليه فيما يأتي.

ولذا يحاول دائماً أن يتعرف عطاء التضحية ليقرر على ضوئه مدى نجاحها أو فشلها، ومتى كان النجاح هو الوصول إلى الهدف، لا يعني النائر المضحي ألا يصل إلى هدفه إلا بعد حين، حينما تكون الظروف الاجتماعية التي يعيشها هي التي تملي عليه ذلك.

وفي النوعين الأخيرين (الحركة الانقلابية والحركة الثورية) يصدر القائمون بها عن أداء المسؤولين الاجتماعيتين المعروفتين بمسؤولية

(الدفاع) وبمسؤولية (الجهاد)، المسؤوليتين اللتين هما - في واقعها - مسؤولية (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) نفسها ملغى فيها شروطها المشار إليها آنفاً.

□ متى يأتي دور التضحية؟

إن دور التضحية - ولاسيما بمعناها الخاص - لا يأتي إلا إذا فشلت كل الوسائل والأساليب الأخرى في مجال التغيير الاجتماعي، أي إن دورها هو الدور الأخير والنهائي.

ويكون هذا - عادة - في المجتمع الذي يخيم عليه الخمود والرقود، والخلود إلى المسكنة والذلة. في المجتمع الذي يفقد روح الجهاد من أجل الكرامة والعزة، والذي لا ينطوي على روح النضال من أجل المصير الإنساني السعيد. وهذا ما نراه جلياً في واقع ذلكم المجتمع الذي كان يرضى بالذلّ والهوان، فما كان من الإمام إلا أن ضحّى بنفسه.

□ انتصار الدم على السيف

يعبر الإمام الحسين عليه السلام عن تضحيته هذه في كتابه إلى بني هاشم بأنها فتح، إذ يقول: «من لحق بنا منكم استشهد، ومن تحلّف لم يبلغ الفتح». ذلك أن الإنسان صاحب المبدأ والعقيدة عندما يضحى بنفسه من أجل ما يؤمن به، تكون شهادته انتصاراً لقضيته التي ضحّى من أجلها. ذلك أن هذا النوع من التضحية يشكّل احتجاجاً صارخاً تجاه

سياسة القاتل والظالم. وهو ما يشهد له التاريخ، إذ لم يبقَ يزيد ومن بعده في الحكم (ابنه معاوية) إلا مدة يسيرة في الحكم. حيث تنازل معاوية بن يزيد عن السلطة. وبهذا انتهى الحكم السفيفاني، إذ كانت حادثة كربلاء من أسباب تقصير مدته.

وبعد الحكم السفيفاني، حكم مروان بن الحكم الذي كان طريد رسول الله ﷺ هو وأبوه. ولكن حكم المروانيين لم يدم كذلك، إذ توالى الثورات ضدّ الحكم الأموي، فكانت ثورة زيد بن علي بن الحسين عليه السلام، وابنه يحيى بن زيد، وبعدهما ثورات الحسينيين ومعها الثورات والاضطرابات الأخرى ضدّ الحكم الأموي، إلى أن سقطت الدولة الأموية على يد العباسيين.

من نتائج النهضة الحسينية

◀ الثورة الحسينية كانت حركة اجتماعية إسلامية أسست لمنهج جديد في التغيير الاجتماعي وفي طبيعة التعامل مع السلطة في حال وجدت الظروف الموضوعية المناسبة لأن تعطي الثورة على الحاكم ثمارها وأن تنتج الشجرة المثمرة والوارفة بظلالها على المجتمع. وما كان لهذا المنهج أن يجد طريقه لولا شعنته الأولى في النهضة الحسينية المباركة.

عندما تحرك الإمام الحسين عليه السلام في نهضته المباركة، كان يدرك من البدء أنه في قيامه بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سيتهي على نحوٍ يضحّي فيه بنفسه من أجل قضية مبدئية، ولكن هذه التضحية ستثمر ما يُرجى منها من نتائج مهمّة على الصعيد الإسلامي العام، ويمكننا استعراض مجموعة من تلكم النتائج، نلخصها على الشكل التالي:

(١) استطاعت الثورة الحسينية أن تحرك وعي الجماهير وتثير في أنفسهم التساؤلات حول شرعية ما يقوم به سلاطين بني أمية، وفي إمكانية التغلب على حاجز الخوف المسيطر حينها على نفوسهم وعقولهم. ففي الوقت الذي كان الحاكم يفعل ما يشاء دون مواجهة تلکم التساؤلات، وبخاصة بعدما قام به معاوية من القبضة الأمنية، ومعها إضفاء نوع من الشرعية على ما يقوم به من أعمال، أصبح بعد هذه الحادثة معرّضاً لهذا النوع من التساؤلات، وعليه تبرير ما يقوم به من أعمال. فهذا هو يحاسب على تصرّفاته، ويخشى ثورة الجماهير ضده، وهو أمر لم يكن متصوّراً مسبقاً. إذ كان يكفي أن يقال حينها أنه خرج على الخليفة أو عن جماعة المسلمين. وهو أمر تبين خطاه وأنه لم يكن إلا لأغراض سياسية.

(٢) حرّكت هذه الثورة روح المسؤولية في نفوس المسلمين تجاه قضاياهم المصيرية، وأزاحت روحية اللامبالاة التي كانت مسيطرة قبل ذلك. إذ عادت مسألة الخلافة والحكم إلى صلب الاهتمام اليومي لدى المسلم بعدما غيبها معاوية بما أحدثه من حالات اللهو والطرب، وبما أشاعه من فكرة الجبر الإلهي.

(٣) فتحت الثورة الحسينية المجال واسعاً أمام أئمة أهل البيت لينطلقوا في الواقع الاجتماعي، وأن يمارسوا دورهم العلمي والتثقيفي والوعظي للمسلمين، وأن يحدّوا من غلواء التلاعب بالدين. وقد استطاع الأئمة القيام بهذا الدور بصورة تدريجية، ذلك أن السلطة

الأموية خففت الكثير من الضغوط عن أهل البيت عليهم السلام، إذ لم يجرؤوا على إيذائهم بعد معركة كربلاء.

ومن أمثلة ذلك أن يزيد بعد واقعة الحرة التي استباح فيها جيشه المدينة بأمر منه ثلاثة أيام، طلب من جميع أهل المدينة مبايعته عبيداً ورفيقاً له، ولكنه استثنى منهم الإمام علي بن الحسين عليه السلام، وما ذلك إلا بسبب خشية يزيد بعدما فعله في واقعة كربلاء. يقول صاحب الأعيان: «إن يزيد بن معاوية لما أمر أن يبايعه أهل المدينة بعد واقعة الحرة على أنهم عبيد رق له لم يستثن من ذلك إلا علي بن الحسين، فأمر أن يبايعه على أنه أخوه وابن عمه»^(١).

ونتيجة هامش الحرية الذي تمتع به، استطاع الإمام زين العابدين أن يمارس دوره الوعظي والإرشادي، إذ كان الدعاء وسيلة ناجعة في إيصال ما كان الإمام يريد إيصاله من رسائل. وقد كان «للإمام السجاد عليه السلام أسلوب خاص في بث الدعوة لأهل البيت عليهم السلام، ذلك أنه لا يبرز هذه الدعوة بصورة ظاهرة، بل يضمني عليها ثوب المناجاة... لتمر في عصر الأمويين بسلام دون أن تثير أي اهتمام، يقول عليه السلام: «رب صل على أطياب أهل بيت محمد الذين اخترتهم لأمرك، وجعلتهم خزنة علمك، وحفظة دينك، وخلفائك في أرضك، وحجتك على عبادك، وطهرتهم من الرجس تطهيراً».

(١) أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين (ت ١٣٧١هـ)، تحقيق وتخرّيج: السيد حسن الأمين، دار المعارف للمطبوعات - بيروت، ط ٥، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ج ١/ ٦٣٠.

وقال طالباً من الله الصلوات والرحمة لشعبة أهل البيت عليهم السلام:
 «اللهم صل على محمد وآل محمد، وصل على أوليائهم المعترفين بمقامهم
 المتبعين منهم، المقتفين آثارهم، المتمسكين بولايتهم، المؤتمنين
 بإمامتهم، المسلمین لأمرهم، المجتهدين في طاعتهم، المنتظرين أيامهم،
 الماديين إليهم أعينهم»^(١). وهناك العديد من المضامين التي استطاع عليهم السلام
 أن يوصلها من خلال الممارسة التربوية والروحية المتمثلة في أدعية
 الصحيفة السجادية، إذ كانت الوسيلة المتاحة له عليهم السلام في تلکم الظروف
 الأمنية الصعبة.

وبعد رحيل الإمام السجاد عليه السلام، تخففت الضغوط بصورة أوسع
 في عهد الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام. وقد مارسا دوراً مهماً في محاربة
 ما عُرف فقهياً بمدرسة الرأي. وهي اتجاه سلكه الصحابة بعد رحيل
 رسول الله، وقد ذهب هذا الاتجاه بعيداً في الخروج عن النصّ الشرعي
 واعتماد الرأي والقناعة الذاتية في بيان الأحكام وإصدار الفتاوى.
 فكانت تستعمل في بعض مواضعها فيما يخدم السلطة، وهو ما يدفع
 باتجاه تحريف الشريعة في المستقبل. وهو أمر تنبه له الأئمة مبكراً، إذ كان
 إمامنا الإمام علي عليه السلام أول من حارب هذا الاتجاه، واشتدّت محاربتة في
 عهدي الإمامين: الباقر والصادق عليهما السلام.

(١) مع بطله كربلاء.. السيدة زينب بنت أمير المؤمنين عليها السلام، الشيخ محمد جواد
 مغنية، دار التيار الجديد ودار الجواد - بيروت، ط ٥، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، ص
 ٦٩ - ٧٠.

وقد ظهر ذلك في المناظرات والمحاورات التي دارت بين الإمام الصادق وبين أئمة المذاهب والمدارس الأخرى، إذ عُرِفَ أهل البيت بمحاربتهم لمنهج الرأي والقياس، مصدرين من مصادر الحكم الشرعي^(١).

ولولا ما أتاحتها هذه الثورة الحسينية من فسحة لأهل البيت عليهم السلام، لما استطاع الأئمة لاحقاً من ممارسة هذا النوع من الدور فيما أتيح لهم من هامش الحرية. وبخاصة أن قيام الإمام الحسين عليه السلام بالتضحية بنفسه من أجل ما كان يحمل من قضية ومبدأ، أعطى المجتمع صورةً بأن أهل البيت عليهم السلام يختلفون عن بقية المجموعات الإسلامية التي كانت تسعى لنيل السلطة، وهي صورة ساعدت بصورة كبيرة على أن يتوجه المسلمون إلى أهل البيت والنهل من منبعهم الصافي، وإلى أن ينالوا درجة كبيرة من التقدير والاحترام فيما بينهم.

(٤) وأخيراً، لا يجب إغفال أن الثورة الحسينية كانت حركة اجتماعية إسلامية أسست لمنهج جديد في التغيير الاجتماعي وفي طبيعة التعامل مع السلطة في حال وجدت الظروف الموضوعية المناسبة لأن تعطي الثورة على الحاكم ثمارها وأن تنتج الشجرة المثمرة والوارفة بظلالها على المجتمع الإسلامي. وما كان لهذا المنهج أن يجد طريقه لولا شعلته الأولى في النهضة الحسينية المباركة.

(١) لمزيد من التوسع، انظر: تاريخ التشريع الإسلامي، الدكتور عبد الهادي الفضلي، مصدر سابق، ص ١٧٦ - ١٩٦.

واجبنا تجاه الثورة الحسينية

◀ ما دمنا نحمل قضية الإمام الحسين عليه السلام، فعلينا أن نؤدّي رسالته على أكمل وجه إلى أكبر شريحة ممكنة. وفي حال اقتصرنا على الوسائل التقليدية، لا يبعد أن يكون ذلك في عداد التقصير تجاه هذه القضية، وليس من باب القصور، فالإمكانيات المادية موجودة والحمد لله، ويجب أن نشعر بأهمية التوجّه نحو هذه الوسائل الحديثة والنافعة والمهمّة.

منذ انطلاقة الشرارة الأولى للنهضة الحسينية، أعلنها الإمام الحسين عليه السلام نهضة إسلامية شاملة دون أن تكون من أجل مصلحة فئة تجاه بقية الفئات الأخرى. لقد كان هدفه ووجهته أن يصلح أمة جده المصطفى صلى الله عليه وآله. كما أن ما ظهر عنها من نتائج كان على مستوى الأمة أيضًا، ولم تكن خاصّةً بمن يوالون أهل البيت ويشايعونهم.

ولكنّ - بسبب ما لحق بأهل البيت عليهم السلام وأتباعهم من أذى ومحاصرة امتدّت طوال فترة الحكم الإسلامي - أدى ذلك إلى أن يكون حامل لواء قضية عاشوراء هم أتباع هذا المذهب، وإلا فإن رسالة

الإمام الحسين في ثورته المباركة كانت رسالة إنسانية، يرفض فيها جميع أنواع الظلم والاستبداد وحياة الذل والاستكانة.

ومع كل تلك المحاولات لمحاصرة إحياء ذكرى هذه الحادثة، فإنها ظلّت باقية إلى يومنا هذا، وأصبحت رمزاً خالداً لرفض الظلم والطغيان ومقارعة الظالمين، سواءً في مجتمعات الموالين لأهل البيت عليهم السلام، أو على المستوى الإسلامي العام. وإننا لنجد هذا المشهد الاجتماعي متكرراً كل عام بما تحييه المجتمعات الشيعية من إحياء واسع لذكرى هذه الحادثة المؤلمة. وهو ما يعزّز لديهم هذه الروح الوقّادة الرافضة للظلم وجميع مظاهر الخنوع والاستسلام.

ومن تلك المشاهد الدالّة على الحضور اليومي لكربلاء ما تشهده ساحة الجنوب اللبناني اليوم من مواجهة مع العدو الصهيوني، إذ نجد المجاهدين هناك ترفرف في أحيائهم رايات (كربلاء الثانية)، في إشارة واضحة إلى رمزية وحضور كربلاء في خضمّ صراعهم ومقارعتهم لجبروت العدو الصهيوني بكل ما يملك من آلة عسكرية مدمّرة وقوى عالمية داعمة.

وعلى الصعيد الإسلامي العام، أتذكر في هذا السياق أنه في أحداث مأعرف حينها بأيلول الأسود عندما تصارع الأردنيون مع الفلسطينيين في الأردن، وما نجم عنها من مطالبة من قبل الأردنيين بطرد اللاجئين

الفلسطينيين^(١). حينها ظهرت بعض الوساطات العربية لحلّ تلکم الأزمة، وكان من بين من دخل على الخطّ الرئيس السوداني في حينها جعفر النميري. حيث تجوّل النميري في شوارع عمّان ورأى تلکم المشاهد البشعة بسبب الحرب بين الفصليين العربيين، لينقل مرثياته فيما بعد إلى المسؤولين العرب. وقد توجه بعدها لمقرّ الجامعة العربية، وكان ذلك أيام الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر. وقد كان في استقباله في مطار القاهرة مع مجموعة من الصحفيين. وكان مما صرّح به النميري في وصفه لما رأى أن قال: «إني قد رجعت من كربلاء الثانية». وهذا له دلالاته الواضحة على حضور ورمزية النهضة الحسينية التي لا تزال حاضرة في الوجدان العربي والإسلامي إلى وقتنا الراهن رمزاً للثورة والتضحية، رغم كل التعتيم والمحاصرة التي تعاقبت عليها طوال هذه القرون.

(١) حدث أيلول الأسود هو الاسم الذي يشار به إلى أحداث شهر أيلول من عام ١٩٧٠م، ومن أطلق عليه هذا الاسم أفراد الحركات السياسية الفلسطينية. حيث تصرّفت بعض المجموعات الفلسطينية بشكل يهدد الحكم الهاشمي في الأردن، فأعلنت حالة الطوارئ وتحرك الجيش الأردني بناءً على تعليمات الملك حسين بن طلال (ت ١٩٩٩م) وبعض مستشاريه العسكريين. ومنذ ذلك الوقت تمّ التخطيط لوضع نهاية لوجود المنظمات الفلسطينية العسكرية في الأردن. ولأنّ العلاقات لم تكن بين الملك حسين والرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر جيدة حينها، أعطى ذلك منظمة التحرير الفلسطينية قوة دافعة داخل الأردن مردّها أن قيادة المنظمات الفلسطينية كانت متأكدة من أن الأنظمة العربية المجاورة للأردن سوف تتدخل لمصلحة المنظمات الفلسطينية في حال نشوب أي صراع مع الجيش الأردني، وهو ما دفع الأمور إلى مرحلة المواجهة حينها. انظر: موسوعة ويكيبيديا الحرة، النسخة العربية، مادة (أيلول الأسود).

□ الدور الإعلامي في نشر الفكر

واستطرادًا في هذه النقطة، أودّ إلى الإشارة إلى أهمية دور الإعلام في صنع توجّهات الجمهور على المستوى العالمي. فنحن نعيش اليوم موجة الإعلام المرئي المتمثّل في الإعلام والقنوات التلفزيونية. وشعوبنا الإسلامية - بحمد الله - تتمتع بسيولة مالية جيّدة، ومن واجبنا أن نتوجّه لنشر قضايانا والتعبير عن فكرنا وآرائنا عن طريق هذه الوسائل الإعلامية التي بدأت تغزو كل بيت وكل عائلة.

وما دمنا نحمل قضية الإمام الحسين عليه السلام، فعلينا أن نوّدي رسالته على أكمل وجه إلى أكبر شريحة ممكنة. وفي حال اقتصرنا على الوسائل التقليدية، لا يبعد أن يكون ذلك في عداد التقصير تجاه هذه القضية، وليس من باب القصور، فالإمكانات المادية موجودة والحمد لله، ويجب أن نشعر بأهمية التوجّه نحو هذه الوسائل الحديثة والنافعة والمهمّة. ولا يجب أن يتسرّب إلينا وهم صعوبة هذه الخطوة، فهي أمر سهل بالمقارنة مع كثير من القضايا.

وما أقوله أنطلق فيه من واقع التجربة، إذ بدأنا التفكير ووضع الخطط والبرامج بخصوص هذا الموضوع مع الإخوة القائمين على الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية في لندن. حيث تمّ تداول الموضوع ورصد الميزانية المطلوبة لإنشاء قناة إسلامية تبثّ من إحدى الدول الغربية، مثل بريطانيا. فوجدنا أن الموضوع ليس بالصعوبة المتصوّرة. فقد صورنا في الجامعة عددًا من الدروس والمحاضرات الجامعية ومن

ثمَّ سجّلناها في أحد الاستديوهات الصغيرة في لندن، ومن ثمَّ استتجار ساعتين للبتّ الفضائي من أوروبا موجّهة لدول إفريقيا وشرق آسيا ومنطقة الخليج، وقد كانت التكلفة الفعلية لا تتجاوز المليون جنيه إسترليني في العام. وهو مبلغ يمكن تأمينه بالمقارنة مع الإمكانيات المادية المتاحة لأبناء المنطقة. وأرجو أن تظلّ هذه الفكرة موضع البحث والتداول إلى أن تنضج وتكون حقيقةً قائمة، بإذن الله تعالى.

■ والحمد لله رب العالمين ■

ثبت المصادر

١. القرآن الكريم.
٢. الاحتجاج، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي (ت ٥٤٨هـ)، تحقيق: السيد محمد باقر الخрсان، مؤسسة الأعلمي ومؤسسة أهل البيت - بيروت، ط ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
٣. الأخلاق الحسينية، جعفر البياتي، بدون ناشر، ط ١، ١٤١٨هـ.
٤. الإرشاد، الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ)، تحقيق ونشر: مؤسسة أهل البيت عليه السلام لتحقيق التراث - قم، ط ٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
٥. أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين (ت ١٣٧١هـ)، تحقيق وتخریج: السيد حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات - بيروت، ط ٥، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
٦. الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، تصحيح: أحمد الشنقيطي، مطبعة التقدم - القاهرة، بدون تاريخ نشر.

٧. أهل البيت عليهم السلام تنوع أدوار ووحدة هدف، السيد محمد باقر الصدر (ت ١٤٠٠هـ)، دار المعارف للمطبوعات - بيروت، بدون تاريخ.
٨. تاريخ أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٨٤هـ) (تاريخ اليعقوبي)، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ نشر.
٩. تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (ت ١٩٨٧م)، دار العلم للملايين - بيروت، ط ٤، ١٩٨١م.
١٠. تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي)، الدكتور شوقي ضيف (ت ١٤٢٦هـ)، دار المعارف - القاهرة، ط ١١، ١٩٨٩م.
١١. تاريخ التشريع الإسلامي، الدكتور عبد الهادي الفضلي، مركز الغدير - بيروت، ط ٢، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.
١٢. تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف - القاهرة، ط ١٩٧٠م.
١٣. تاريخ المدينة المنورة، ابن شبة النميري البصري (ت ٢٦٢هـ)، تحقيق: فهد محمد شلتوت، بدون ناشر وتاريخ نشر.
١٤. جمل من أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى البلاذري (ت ٢٧٩هـ)، تحقيق: الدكتور سهيل زكار والدكتور رياض زركلي، دار الفكر - بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
١٥. حياة الإمام الحسين بن علي عليهما السلام: دراسة وتحليل، الشيخ باقر شريف القرشي (ت ١٤٣٣هـ)، تحقيق: مهدي باقر القرشي،

- إصدار قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة -
كربلاء، ط ٢، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
١٦. ديوان السيد حيدر الحلي (ت ١٣٠٤هـ)، تحقيق: علي الخاقاني،
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، ط ٤، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
١٧. سمو المعنى في سمو الذات أو أشعة من حياة الحسين عليه السلام، الشيخ
عبد الله العلايلي (ت ١٤١٧هـ)، دار مكتبة التريية - بيروت، ط ٢،
١٣٥٩هـ.
١٨. السيرة النبوية، ابن هشام (ت ٢١٨هـ)، تحقيق: مصطفى السقا
وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، القاهرة، بدون تاريخ
نشر.
١٩. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد (ت ٦٥٦هـ)، تحقيق: محمد أبو
الفضل إبراهيم، دار الجيل - بيروت، ط ٢، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
٢٠. الشيعة في الميزان، الشيخ محمد جواد مغنية (ت ١٤٠٠هـ)، دار
الجواد ودار التيار الجديد - بيروت، ط ١١، ١٩٨٦م.
٢١. الطبقات الكبير، محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت ٢٣٠هـ)،
تحقيق: الدكتور علي محمد عمر، مكتبة الخانجي - القاهرة،
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
٢٢. الغدير في الكتاب والسنة والأدب، الشيخ عبد الحسين الأميني
النجفي (ت ١٣٩٢هـ)، مؤسسة الأعلمي - بيروت، ط ٣،
١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.

٢٣. الفتنة الكبرى: عثمان، ضمن كتاب (إسلاميات)، الدكتور طه حسين (ت ١٣٩٣هـ)، منشورات دار الآداب - بيروت، ط ١، ١٩٦٧م.
٢٤. في ظلال نهج البلاغة: محاولة لفهم جديد، الشيخ محمد جواد مغنية (ت ١٤٠٠هـ)، دار العلم للملايين - بيروت، ط ٣، ١٩٧٩م.
٢٥. مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت ٣٤٦هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر - بيروت، ط ٥، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
٢٦. مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
٢٧. مع بطلة كربلاء.. السيدة زينب بنت أمير المؤمنين عليها السلام، الشيخ محمد جواد مغنية، دار التيار الجديد ودار الجواد - بيروت، ط ٥، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
٢٨. معجم شعراء الحسين عليه السلام، الشيخ جعفر الهلالي، مؤسسة أم القرى - بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
٢٩. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مطبعة الشروق الدولية - القاهرة، ط ٤، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
٣٠. المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت ٤١٥هـ)، تحقيق: الدكتور محمود محمد قاسم، مراجعة: الدكتور

إبراهيم مدكور، إشراف الدكتور طه حسين، بدون ناشر وتاريخ نشر.

٣١. مهذب الأحكام في بيان الحلال والحرام، السيد عبد الأعلى السبزواري (ت ١٤١٤هـ)، نشر: مكتب السيد السبزواري - قم، ط ٤، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٣٢. النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، تقي الدين المقرئ (ت ٨٤٥)، تحقيق: الدكتور حسين مؤنس، دار المعارف - القاهرة، ط ١٩٨٨م.

٣٣. نهج البلاغة، جمع: الشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ)، شرح: الشيخ محمد عبده (ت ١٣٢٣هـ)، دار البلاغة - بيروت، ط ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

المحتويات

٧	تقديم
١١	مقدمة
١٣	الفصل الأول: النهضة الحسينية أداء لفريضة إلهية
١٧	فريضة الأمر بالمعروف في المجتمع الإسلامي
٢٣	الفريضة الشرعية وأساليب التطبيق
٢٩	الفصل الثاني: النهضة الحسينية وطبيعة التحرك
٣١	المجتمع الإنساني والتغيرات الجذرية
٣٥	الدعوة الإسلامية وضرورة تغيير الواقع
٣٩	الثورة الحسينية والقراءة الصحيحة
٤٧	الفصل الثالث: المجتمع الإسلامي وبوادر التغيير
٥١	بوادر التغيير بعد رحيل الرسول ﷺ
٥٥	المجتمع الإسلامي في ظل النظام الطبقي

٦٩.....	الفصل الرابع: أهل البيت ومرحلة المواجهة
٧١.....	السياسة العلوية ومحاولات الإصلاح
٨١.....	المجتمع المسلم أيام الإمام الحسن <small>عليه السلام</small>
٨٥.....	أثر السياسة الأموية في تغيير الواقع الإسلامي
٩٧.....	نتائج عامة مما سبق
١٠١.....	الفصل الخامس: التضحية سبيلاً وحيداً للتغيير
١٠٣.....	المجتمع الإسلامي أيام الإمام الحسين <small>عليه السلام</small>
١٠٩.....	التضحية بالنفس من أجل المبادئ
١١٥.....	من نتائج النهضة الحسينية
١٢١.....	واجبنا تجاه الثورة الحسينية
١٢٧.....	ثبت المصادر
١٣٣.....	المحتويات